ت في الفِرَق

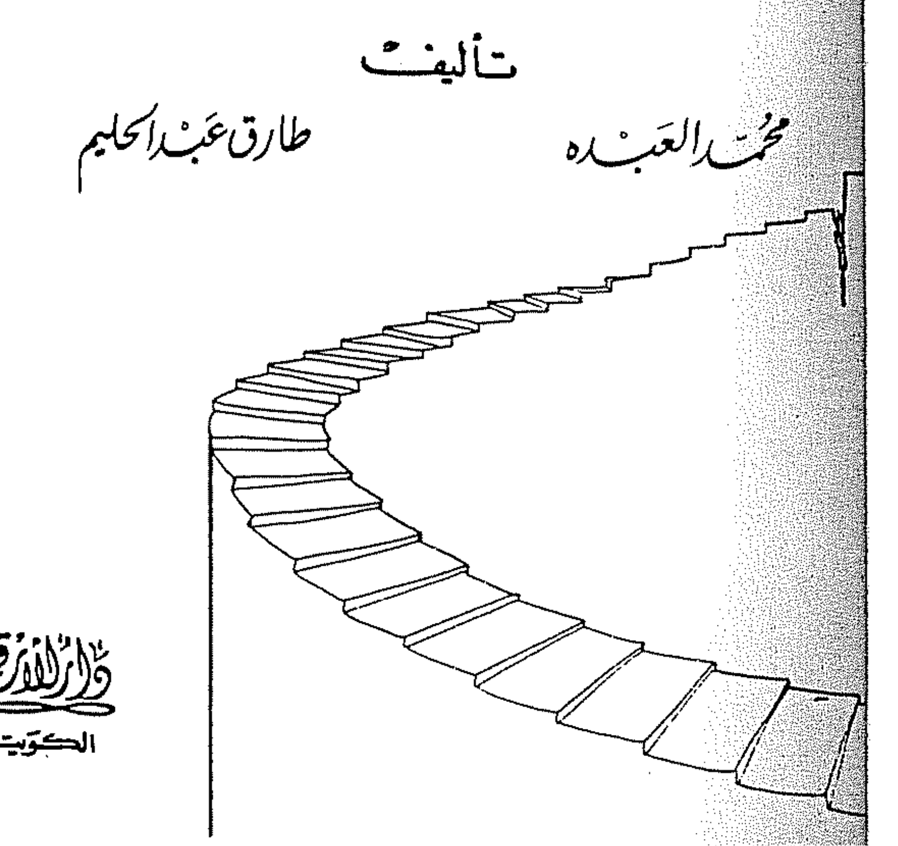
الصوفية

نشأتها وتطورها

تأليف

محمد العبده

طارق عبد الحليم



دار الأرقم

الكويت

مقدمة الطبعة الثانية

رغب إلى أخ صديق فى أن يعيد طباعه هذا الكتاب لما وجد من مسيس الحاجه إلى أن تنتشر مادته بين الناس ، خاصه فى هذه البلاد التى أراد الله لنا أن نقضى بها روحا من الزمان يطول ببعضنا ، ويقصر ببعضنا الاخر.

وقد علمت من أمر الصوفيه ما علمت ، سواء عن طريق ما كتب عنهم ، وما كتبت أقطابهم عنها ، أو عن طريق الممارسه العمليه التى ولدها الإحتكاك ببعض رؤوسهم فى بلادنا خلال الثلاثين عاما التى إنصرمت أو كادت.

ويشهد الله سبحانه أنى ما سررت بما علمت ، ولا رضيت بما رأيت وعاشرت. فالقوم أبعد ما يكون عن إتباع السنة المطهرة ، التى ليلها كنهارها ، والتى لا يزيغ عنها إلا هالك ، كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
والناس يخطئون ويصيبون ، فالخطأ وارد على بنى آدم ، ولكن القوم ضلوا وأضلوا وما أدرى ما دهاهم ! أما علموا أن البدعه لا تودى بصاحبها إلا إلى النار!
أما قرؤوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " رواه مسلم. قال الشاطبى " وهذا الحديث عده العلماء ثلث الإسلام، لأنه جمع وجوه المخالفه لأمره عليه السلام . ويستوى فى ذلك ما كان بدعه أو معصيه " إعتصام ٦٨-
أما سمعوا قول حذيفه بن اليمان رضى الله عنه حين أخذ حجرين فوضع أحدهما على الاخر وسأل أصحابه : هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا : يا أبا عبد الله ما نرى بينهما من النور إلا قليلا . قال: والذى نفسى بيده لتظهر

من البدع حتى لا يري من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شئ قالوا تركت السنه. وقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، إتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

والقول فى البدعه وآثارها يطول. إلا أننى قصدت إلى التنبيه على ما هو دائر فى هذه الاونه، وفى هذه البلاد من ظواهر تمجيد بعض مدعى التدين من الصوفيه، الذين يأتون من أنحاء البلاد الإسلاميه حاملين جراثيم التصوف ينقلونها إلى العوام من الناس. والعجيب من أمر هؤلاء الناس أن منهم من يدعى الإنتساب إلى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل منهم من يعتلى المنابر خطيبا بإسم جمعيات إو جماعات إسلاميه ومنهم من هو مقدم لدى المسلمين فى هذه البلاد، ثم إذا هو إما منتسب إلى التصوف أو متساهل فى أمر المتصوفه، يقدمهم إلى الناس –بإسم توحيد الصفوف– على أنهم من المسلمين الدعاه إلى الله.. أما عرف أمثال هؤلاء المتهاونين فى أمر الدين أن " من أتى صاحب بدعه ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام " كما قالت عائشه رضى الله عنها!

كيف سمح أمثال هؤلاء المقدمون بين الناس، الذين حملوا أمانه إعتلاء المنابر، وقياده تجمعات المسلمين فى هذه البلاد التى لا يعرف أهلها من أمر دينهم إلا من خلال ما يلقى عليهم من فوق هذه المنابر، كيف سمح هؤلاء لأنفسهم أن يقدموا من ضل وابتدع ليخاطب الناس ويزيف عليهم دينهم، ويخرجهم عن الصراط السوى!!

أتراه الجهل... جهل أمثالنا من العامة الذين قلدوا هؤلاء القوم أمر دينهم دون أن يتحققوا من صحه علمهم وقوة معرفتهم، وصدق إخلاصهم لدين الله، وجهل هؤلاء القادة والأئمة أى والله يصفونهم بلفظ الإمام أو الشيخ !! الذين تقلدوا تلك المناصب وحازوا تلك الألقاب والمراكز – رئيس جمعيه كذا وكذا أو إمام كذا وكذا ... دون وجه حق .. ألا يتقى الله أمثال هؤلاء، ويتحرون الرشد فى النصيحه للمسلمين !! أليس من واجبهم أن لا يسلموا أمانه الكلمة التى تقلدوها إلا لمن هو متبع للسنة الصحيحة، بعيد عن البدعه وضلالاتها.

ام تراها المصلحة المادية التى تجعل أمر الدنيا لدى بعض هؤلاء المنغمسين فى العمل الإسلامى مرتبط إرتباطا وثيقا بموقعه الدينى وقوة سيطرته على العوام، وعلى المراكز والجمعيات الإسلاميه.. أم هى خليط من كليهما ؟؟

ألا أن الحق أحق أن يتبع .. ووالله إن تركنا أمر ديننا لمن ليس أهل لذاك لنندمن ندما شديدا حيث لا ينفع الندم. إن أمثال هؤلاء المتصوفه يدعون إلى أمثال محى الدين بن عربى الشيخ ,القائل بوحده الوجود جهارا نهارا على رؤوس الأشهاد.

يقول هذا الزائغ فى وصفه لمرتبه "الجمع" أى الإجتماع بالله وإتحاد الواجد به سبحانه ..

لها صلاتى بالمقام أقيمها	وأشهد أنها لى صليت
كلانا مصل وعابد ساجد إلى	حقيقه الجمع فى كل سجدة

فنفسه تصلى لنفسه وهو يسجد لذاته إذ هى متحدة بالله سبحانه . ويقول شارح شعره فى الحديث عن مرتبه " الصحو والمحو" : " فالوجود – لدى إبن عربى_ واحد ، وليس هنالك زمان ، أو سابق ذوات ، أو إختلاف أديان ، أو أنا وأنت وهو، بل روح واحده هى حقيقة الحقائق التى تتجلى مختلفه فى الوجود الحسى.

ففى الصحو بعد المحو لم أك غيرها
وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت

وامثال هذا المروق من الدين لدى الحلاج وأبى يزيد البسطامى وأتباعهم وأمثالهم من القدماء والمحدثين .... وحسبك

باتباعهم من المحدثين الذين يلتمسون مقامات الأولياء ليأخذوا الإذن بطباعه كتبهم – إقرأ مقدمة كتاب "السيد البدوى" لعبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق.

وهم لا يكتفون بالترويج لهذا المروق، بل يرمون أئمة السنة وأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بالكفر والإلحاد ....
وعلامتهم التى تميزهم بها، التهوين من أمر الصحابه رضوان الله عليهم، والإشارة إلى خلافاتهم للتقليل من شأنهم بل وتبديع وتكفير أمثال ابن تيميه رضى الله عنه لما عرف عنه من شدته على البدعة والمبتدعة.

فالحذر الحذر يا أمة الإسلام .... ونحن أولى بالحذر من غيرنا لبعد الشقه عن منبت الإسلام وصعوبه حيازه الكتب والمراجع الضرورية، وقله أصحاب العلم الحق وكثره المزيفين ومدعى التدين، وأصحاب المصالح الدنيوية....
عليكم بسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنه الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .. عضوا عليها بالنواجذ ..
وإياكم ومحدثات الأمور فكل محدثه بدعه ... نعم .. والله الذى لا إله إلا هو ... كل محدثه بدعه (وكل لفظ وضع لصيغ العموم) فلا يغرنكم من يتعالم بألفاظ تبدو فى ظاهرها موافقة للشريعة وهى تحمل فى طياتها نقد سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدم الدين والمروق من الشريعه.

طارق عبد الحليم
تورنتو – كندا فى رمضان ١٤١٧ هجرى
الموافق يناير١٩٩٧

دراسات في الفرق

الصوفية
نشأتها وتطورها

« عندما يكون الفكر الإسلامي في حالة أفول ــ كما هو حاله في الوقت الحاضر ــ فإنه يغرق في التصوف وفي المبهم وفي المشوش ، وفي النزعة إلى التقليد الأعمى » .

مالك بن نبي .

حين خبت تلك النار داخل الصدور بدأ المسلمون يزحفون إلى المقامات .

محمد إقبال .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

١ ـــ فإن هذا البحث عن الصوفية لم يقصد به الإستقصاء لكل ماكتب عن الصوفية أو كل ماكتب الصوفية عن أنفسهم والتفتيش عن أقوالهم وآرائهم وطرقهم بالتفصيل ، فإن هذا شيء يطول وليس من غرضنا ، بل الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا هو إعطاء فكرة مركزة موجزة عن الصوفية لأناس ينشدون الحق وتحصيله بعيدا عن هذا الركام من الفرق والتفرق ، ولذلك فإن معرفة أصولهم ومراحل تطورهم ، والبدع التي وقعوا فيها ورؤوس طرقهم تكفي لمعرفة حالهم وأما الغارقون في التصوف فقد قال السلف عنهم : إن صاحب البدعة قل أن يرجع عنها .

٢ ـــ نحن لانكتب عن صوفية كانت وبادت أوهي جزء من التراث كما يقال اليوم بل هي موجودة موصولة بالماضي ، بل نستطيع أن نقول أنهم عادوا بعد أن انحسر ظلهم قليلاً ، عادوا بقوة لغاية في نفس من يستفيد من عودتهم ليزاحم بهم دعوة الإسلام الحق ، فالبريلوية في المشرق والتجانية في المغرب وبينهماالشاذلية والبرهانية ... إلى آخر أسماء الطرق التي لاتنتهي ، عادوا إلى المدينة

ومكة بعد أن خلت منهم عشرات السنين . فلماذا لاننبه المسلمين إلى أخطائهم وخطرهم ؟

٣ ـــ عندما نتكلم عن الصوفية فإنما نقصد المعنى الاصطلاحي ، أي الصوفية التي جاءت بكتب ومصطلحات خاصة ، فيها إشكالات وبعد عن المنهج الإسلامي الصحيح أدت فيما بعد إلى أمور خطيرة مثل الإتحاد والحلول ، فهذا لاشك أنه تفرق وبعد عن خط أهل السنة والجماعة ، وأما الذين يقولون : إنما نعني بالصوفية السلوك الإسلامي وترقيق القلوب والزهد في الدنيا فيقال لهم : لماذا تسمون هذه الأشياء صوفية وقد أصبحت علماً على رموز وأشكال تخالف الإسلام فهلاّ ابتعدتم عن الشبهات وتركتم هذه الأسماء التي ماأنزل الله بها من سلطان « والزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف » (١) .

« والذين اكتفوا بحسن الخلق والزهد في الدنيا والتأدب بآداب الشرع لقبوا بالنساك والقراء والزهاد والعباد ، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتها ومايرد على القلب من خواطر وحرصوا على الصيغة المذهبية لقبوا بالصوفية » (٢) .

فالقضية ليست قضية سلوك وإنما هي أساليب مستحدثة مخترعة أعجمية في الرياضات الروحية أدت إلى الشطح والقول على الله بغير علم ، فغاية الصوفية الإتصال بالله ـــ بزعمهم ـــ والبعد عن الناس ، وهذا مضاد لمنهج الأنبياء الذين لم يبعثوا إلا ليهزوا أركان العالم

١ ـــ ابن الجوزي : تلبيس إبليس / ١٦٥ .
٢ ـــ زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ٢ / ٢١ .

ويوقظوا الناس من سباتهم ، ولذلك فنحن لانعتبر أعلام الزهاد والعباد كابراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأمثالهم داخلين في الصوفية بهذا المعنى الذي نقرره (١) ، فضلا عن أن نعتبر أمثال الحسن البصري ومن قبله كما يحاول الصوفية أن يقرروا وبدون حياء كما يصفهم ابن الجوزي ، وكل فرقة تحاول التمويه على الناس وتنسب إليها أعلام أهل السنة ، فكل الأحاديث الباطلة والمضحكة عند الشيعة الامامية تنسب إلى جعفر الصادق والحقيقة أنه من أئمة أهل السنة .

والفرق بين الزهد الأول والتصوف هو كالفرق بين التشيع بمعناه اللغوي الذي هو المناصرة والمحبة لعلي رضي الله عنه بدون غلو أو تفضيل ، وبين التشيع الذي استقر أخيراً كفرقة لها عقائدها المميزة بعد أن أدخلت الباطنية الغلو في علي توسلاً إلى الطعن في الصحابة ، وهكذا بث الباطنية تعاليمها الإلحادية في غلاة الصوفية (٢) .

٤ ــ إن اعتبار الصوفية (فرقة) لابد أن يثير الإستغراب والتساؤل ، لأن الإعتقاد السائد أنهم من غمار أهل السنة .

وجواباً على هذا الإعتراض نقول : إذا كانت الصوفية تعتقد أن طريق الوصول إلى الله سبحانه وتعالى بالكشف والذوق والرياضات الروحية التي ماأنزل الله بها من سلطان ، فلاشك أن هذا تفرق مذموم

---

١ ــ جاء في دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٣٣ ط. ١٩٣٣ : « وعبثاً نحاول أن نجد أي أثر للنزعة النظرية التي نمت في القرن الثاني ، ولانستطيع أن نعتبر ابراهيم بن أدهم واحداً من هؤلاء الذين تخطوا تلك الحدود وأساس مذهبه الإعراض عن الدنيا وتأديب النفس » .

٢ ــ انظر رشيد رضا : تاريخ الامام ١ / ١١٦ .

فكيف بمن يتكلم بالحلول والإتحاد ، فهذا كفر صريح . وإذا كان علماء السلف قد ذموا علم الكلام وما جرَّ وراءه من بدع وتفرق ، وإن كان بعض العلماء الذين خاضوا فيه قصدوا الدفاع عن الإسلام بنوايا حسنة ، فكيف لايذم من ابتدع طريق التصوف الأعجمي في الفناء والرهبانية وذكر الله بالرقص والدف « ومن يعتقد أن لأحد طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان » (١) .

ثم إن هناك من العلماء الذين كتبوا في موضوع (الفرق) من اعتبرها كذلك ، كالرازي في كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) قال : « اعلم أن أكثر من قص فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ ... » (٢) ، ثم ذكر طبقاتهم وفرقهم . وقد جعل ابن النديم في كتابه (الفهرست) المقالة الخامسة (في السياح والزهاد والعباد والمتصوفة المتكلمين على الخطرات والوساوس) (٣) .

وعقد ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والنحل) فصلا لذكر (شنع قوم لاتعرف فرقهم) ثم قال : « وادعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله من هو أفضل من جميع الأنبياء ، وأن من عرف الله فقد سقطت عنه الأعمال » (٤) .

وجاء في كتاب (البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان) لعباس

---

١ ــ البقاعي : تنبيه الغبي / ٢١ .

٢ ــ فخر الدين الرازي : اعتقادات فرق المسلمين / ٧٢ .

٣ ــ الفهرست / ٢٦٠ .

٤ ــ ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ٤ / ٢٢٦ .

بن منصور الحنبلي : « ولم يشذ أحد منهم ــ أي عن أهل السنة والجماعة ــ سوى فرقة واحدة تسمت بالصوفية يتقربون لأهل السنة وليسوا منهم وقد خالفوهم في الإعتقاد والأفعال » (١) والظاهر أن المؤلف يتكلم عن غلاة الصوفية .

والقصد أننا لانعني بكلمة فرقة إلا التفرق المذموم في الشرع وهو الإبتعاد عن أصالة الإسلام الذي يمثله جيل الصحابة ومن تبع أثرهم . ونحن نعلم أن هناك أفاضل ينتسبون إلى التصوف ولكن هذا لايمنع من الكلام عن الصوفية بشكل عام ، وهؤلاء العلماء أخذوا بجانب الصوفية لظنهم أنها الطريق الوحيد لتربية النفس ، وهذا خطأ منهم ، ومع ذلك فهم لايتعمقون في التصوف المنحرف المؤدي إلى البطالة أو الكفر ، والمرجئة كذلك تصنف مع الفرق ومع ذلك فقد ابتلي بها بعض العلماء فإذا اعتبرنا الصوفية فرقة ابتعدت قليلا أو كثيراً عن منهج السلف فلايعني هذا أن كل من انتسب إليها ضال منحرف ، فقد يكون من أعظم العباد ولكن فيه نقصاً في جانب من جوانب الإسلام الشامل المتكامل يكون فيه من النقص بمقدار ابتعاده عن السنة .

٥ ــ ونحن لاننكر أن أوائل الصوفية أثروا الجانب الروحي ــ إذا صح التعبير ــ بكلامهم عن أعمال القلوب وخطراتها والتركيز على الإخلاص والتوكل والإنابة والخشية لله سبحانه وتعالى ولكنهم تشددوا في هذا ونقبوا مما سنذكره إن شاء الله في موضعه ، كما أننا لاننكر أن البعض في الطرف المقابل قديكون عنده قسوة قلب وهذا مرفوض أيضاً ، بل هذا فيه شبه باليهود الذين وصفهم الله

١ ــ مقدمة كتاب اعتقادات فرق المسلمين / ١١ .

سبحانه في القرآن بأن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، كما أن عبادة الله دون علم فيه شبه بالنصارى والتوسط المعتدل هو المطلوب ، المطلوب (صراط الذين أنعمت عليهم) فلانكون كالمغضوب عليهم وهم اليهود ، ولا كالضالين وهم النصارى .

٦ ــ إن التصوف بالمعنى الإصطلاحي الذي قررناه مستمر إلى الآن وله أثر سلبي واضح في تربية الأجيال المسلمة ، تربية الاذلال والعبودية للشيخ ، وتصديق كل ماهو غير معقول ؟! إنها مأساة حقيقية أن يظهر بين الفينة والأخرى دجال كذاب يمشي وراءه شباب من طلبة الكليات العلمية وغير العلمية ، عدا العوام وأنصاف العوام . هذه التربية جعلت من هؤلاء الشباب أصفاراً بلهاء ينتظرون كلمة من الشيخ أو معجزة خارقة على يديه .

يقول ابن عقيل محذراً من الصوفية والمتكلمين :

[ماعلى الشريعة أخد من المتكلمين والمتصوفين ، فهؤلاء (المتكلمون) يفسدون عقائد الناس بتوهمات شبهات العقول ، وهؤلاء (المتصوفة) يفسدون الأعمال ويهدمون قوانين الأديان . فالذي يقول : حدثني قلبي عن ربي فقد استغنى عن رسول الله ﷺ ، وقد خبرت طريقة الفريقين فغاية هؤلاء (المتكلمين) الشك ، وغاية هؤلاء (المتصوفة) الشطح] (١) .

لهذه الأسباب ولاستمرار المتصوفة في تخريب الأجيال الإسلامية في كل مكان كان لابد من الكتابة عنهم ، ونحن إن شاء الله لانبخس الناس أقدارهم ولكن كل طائفة أو فرقة تظن أنها وحدها

١ ــ تلبيس إبليس / ٣٧٥ .

على الحق ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فهم يظنون أنهم أفضل الخلق ، وأنهم صفوة أوليائه ، فالغزالي [١] يعتقد أن هذا هو الطريق ولاطريق غيره لتصفية النفس ، وكأنه لم يسمع بشيء إسمه أهل السنة أو أهل الحديث ، أهل العلم والعمل أمثال أحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك وأئمة أهل الفقه والحديث وهم كثيرون جداً [٢] .

والذي يقرأ في أول شدوه للعلم كتب الغزالي أو الحارث المحاسبي [٣] يظن أن هذا هو الطريق ولاطريق غيره ، وتبقى الحقيقة وراء كل ذلك قائمة كالشمس في رابعة النهار ، تلوح لمن صح قصده ، وأصاب عمله ، وانتهج الصراط المستقيم .

وأخيراً نرجو من الله سبحانه وتعالى أن نوفق لعرض نشأة الصوفية وتطورها بدون تعصب أو تحامل والله من وراء القصد ، والحمد لله رب العالمين .

---

١ ــ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزّالي ، تفقه على إمام الحرمين ومهر في الكلام والجدل وتأثر بكتب ابن سينا وإخوان الصفا ، ثم ترك ذلك ومال إلى الصوفية ، وكان من الأذكياء ، صاحب ذهن سيال جوال ولذلك يلاحظ عليه التقلب بين الفقه والالتزام بآداب الشرع وبين الخوض في الفلسفة والكلام والصوفية ، وله في ذلك ألفاظ مستبشعة جداً سقط فيها على أم رأسه ، له تآليف مشهورة في الفقه والتصوف والرد على الفلاسفة . انظر : سير أعلام النبلاء ١٩ / ٣٢٢ ومانقله من أقوال العلماء فيه ، مبالغة منه في الانصاف . توفي أبو حامد سنة ٥٠٥ هـ ببلدة طوس .

٢ ــ انظر كتاب الغزالي : المنقذ من الضلال ، فقد قسم فيه الطرق الموصلة للحق إلى أربعة : الفلسفة ، الكلام ، الإمام المعصوم ، الكشف ثم رضي بالأخير دليلاً له إلى الحق .

٣ ــ هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي ، له كتب كثيرة في الزهد ، رفض تركة أبيه لخوضه في علم الكلام . سئل أبو زرعة الرازي عن كتبه فنهى عنها وقال : (عليك بالأثر وهل بلغكم أن مالكاً والثوري والأوزاعي صنفوا في الخطرات والوساوس) توفي المحاسبي سنة ٢٤٣ هـ . انظر : صفة الصفوة ٢ / ٣٦٧ سير أعلام النبلاء ٢ / ١١٠ .

الباب الأول

تطور الصوفية

مقدمة :

لم تكن الصوفية ــ بطبيعتها ــ فرقة واضحة متميزة حتى يمكن للباحث تتبع تطورها طوراً طوراً عبر السنين وإنما هي فرقة (هلامية) إن صح التعبير ليس لها شكل محدود ، فقد تجد معتنقي أفكارها من هم من الفقهاء ، أو تجدهم متميزين ببدعهم مدعين الإنتساب لأهل السنة ، وهذا الأمر مما يصّعب مهمة الباحث في أطوار الصوفية الذي يقصد إلى التحديد الدقيق لمراحلها المختلفة .
ومن ثم سنحاول بيان هذه الأطوار بذكر المعالم الرئيسية التي مرت بها الفرقة عبر القرون ، وماقد يكون من ظهور أفكار كبرى تصلح أن يعتبرها الباحث مرحلة من المراحل ، فهو تطور امتزج فيه التاريخ بالفكر ، فما أصعب أن تنفصل عرى الإرتباط الذي دام من منشأ هذا التفرق حتى يوم الناس هذا .

وقد قسمنا مراحل تطور الصوفية إلى ثلاثة مراحل مسبوقة بتمهيد لها وهو ظهور طبقة العباد والزهاد في المجتمع الإسلامي . ثم أول المراحل وهم أوائل الصوفية الذين يصح أن يقال فيهم : من هنا بدأ التفرق ، تتبعها مرحلة المصطلحات خاصة الغامضة التي استقلت بها الفرقة ، ثم ظهور فكرة وحدة الوجود وتداخلها في فكر الصوفية مع امتزاجها بالفلسفة الغنوصية اليونانية .

الفصل الأول

المجتمع الإسلامي وظهور طبقة العباد

نشأ المجتمع الإسلامي الأول نشأة طبيعية متكاملة غير متكلفة ، جمع بين بقايا من الفطرة السليمة والوحي المنزل من عند الله سبحانه وتعالى كان العرب يومها وخاصة أهل المدن كقريش والأوس والخزرج أقرب إلى الفطرة من الأمم الأخرى ، فلاريب أن الله اختار لنبيه أفضل الأجيال ، رباهم رسول الله ﷺ بكنفه ورعايته فكانوا : ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار... ﴾ (١) . وعندما يبدر منهم أي اجتهاد يخالف الحنيفية السمحة كان رسول الله ﷺ يصحح لهم الطريق ويعود بهم إلى الجادة المستقيمة ، وعندما همّ ثلاثة من الصحابة بترك الدنيا من نساء وأموال بادر رسول الله ﷺ بردهم إلى الطريق الوسط قائلاً لهم : « أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٢) .

فالتوسط هو الأصل « وإذا نظرت في عمومات الشريعة ، فتأملها تجدها حاملة على التوسط ، فطرف التشديد يؤتى به في مقابلة من

١ ــ سورة الفتح / ٢٩ .

٢ ــ جامع الأصول لابن الأثير ١ / ٢٩٤ باب الإقتصاد في الأعمال .

غلب عليه الإنحلال ، وظرف التخفيف في مقابلة من غلب عليه الحرج الشديد فإذا لم يكن هذا ولاذاك رأيت التوسط لائحاً وهو الأصل الذي يرجع إليه » (١) .

كان الصحابة رضوان الله عليهم فيهم الفقير والغني ، وفيهم التاجر والمزارع والعامل وكان بعضهم يتناوب الحضور للتعلم من النبي ﷺ ويبلغه للآخرين ، وأما أهل الصفة فإنهم لم ينقطعوا للعبادة أو العلم باختيارهم وإنما كان أحدهم إذا وجد عملاً ترك حاله الأولى ، هكذا كانت حياة الصحابة حياة طبيعية تجمع بين العلم والعمل والجهاد في سبيل الله ، وبينما هو متعلم عند رسول الله ﷺ إذا هو بين أهله وولده وضيعته يمارس حياته اليومية المعتادة . والتزام أحدهم بعبادة معينة أكثر من الآخرين كفعل عبد الله بن عمرو بن العاص لايغير من الصورة شيئاً ، فهو شخصية متكاملة ولاتزال الفوارق الفردية تمايز بين الناس في جانب دون آخر . فهم كما وصفهم الإمام الجويني : « ولم يرهق وجوههم الكريمة وهج البدع والأهواء ولم يقتحموا جراثيم اختلاف الآراء كالبيضة التي لاتنشظى » (٢) .

وكان التابعون وكثير من تابعي التابعين على مثل ذلك ، يجمعون بين العلم والعمل ، بين العبادة والسعي على نفسه وعياله ، بين العبادة والجهاد ... ثم بدأ ظهور طبقة يغلب عليها جانب العبادة والبعد عن الناس مع علمهم وفضلهم والتزامهم بآداب الشريعة ، ولأسباب معينة قد يغلب على أحدهم الخوف الشديد والبكاء

١ ــ الموافقات للشاطبي ٢ / ١١٣ ط. دار الفكر بتعليق الشيخ الخضر حسين .

٢ ــ عبد الملك بن عبد الله الجويني : الغياثي / ٤٢ .

المستمر ، فهؤلاء وإن كانت أحوالهم عالية جداً ، ولكن أحوال الصحابة ومن اقتفى أثرهم من التابعين أفضل ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأصحابه : « أنتم أكثر صوماً وصلاة من أصحاب محمد وهم كانوا خيراً منكم قالوا : لم ياأبا عبد الرحمن ؟ قال : لأنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة » (١) .

ومن هؤلاء العباد في المدينة :

١ ـــ عامر بن عبد الله بن الزبير : كان يواصل في الصوم فيقول له والده : رأيت أبا بكر وعمر ولم يكونا هكذا (٢) .

٢ ـــ صفوان بن سليم : من الثقات قال عنه أحمد بن حنبل : يستشفى بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره ، وكان يصلي على السطح في الليلة الباردة لئلا يجيئه النوم ، وقد أعطى الله عهداً أن لايضع جنبه على فراش حتى يلحق بربه ، توفي سنة ١٣٢ هـ (٣) . فإذا كان ماأورده الذهبي صحيحاًفهذا خلاف قوله ﷺ (وأصلي وأنام) .

ومنهم في البصرة طلق بن حبيب العنزي ، من كبار العاملين ، وعطاء السلمي بكي حتى عمش (٤) .

ومنهم كرز بن وبرة الحارثي نزيل جرجان : من العباد والزهاد قال عنه الذهبي : « هكذا كان زهاد السلف وعبادهم أصحاب خوف وخشوع وتعبد وقنوع لايدخلون في الدنيا وشهواتها ولافي عبارات أحدثها المتأخرون من الفناء والإتحاد » (٥) .

---

١ ـــ ابن تيمية : الفتاوى ٢٢ / ٣٠٤ .
٢ ـــ الإمام الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥ / ٢١٩ .
٣ ـــ المصدر السابق ٥ / ٣٦٧ .
٤ ـــ سير أعلام النبلاء ٤ / ٦٠١ .
٥ ـــ المصدر السابق ٦ / ٨٦ .

ومنهم في الكوفة : الأسود بن يزيد بن قيس : كان يجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى يصفرَّ جسمه (١) . وداود الطائي ، يذكر عنه أنه ورث بيتاً فكان لايعمره إذا خربت ناحية منه حتى خرب البيت كله وجلس في زاوية منه ، وقد نحل جداً من قلة الأكل (٢) .

ويبدو أن من أسباب ظهور طبقة العباد والزهاد في القرن الثاني الهجري هو إقبال الناس على الدنيا يجمعون منها ويتفاخرون (٣) ، فكانت ردة الفعل عند البعض هي الإبتعاد الكلي عنها ، ولابد أن هناك أسباباً أخرى قد تكون شخصية ، وقد تكون من أثر إقليم معين أو مدينة معينة ، فإن من الخطأ تفسير ظاهرة ما بسبب واحد .

ثم حدثت مرحلة انتقالية بين هذا الزهد المشروع وبين التصوف حين أصبح له تآليف خاصة ، ويمثل هذه النقلة مالك بن دينار فنراه يدعو إلى أمور ليست عند الزهاد السابقين ، منها التجرد أي ترك الزواج ، وهو نفسه امتنع عن الزواج وكان يقول : « لايبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي مزابل الكلاب » (٤) . ويقول : « إنه لتأتي علي السنة لا آكل فيها لحماً إلا في يوم الأضحى ، فإني آكل من أضحيتي » (٥) . وكثيراً مايقول : قرأت في بعض الكتب ، قرأت في التوراة ، ويروي عن عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم ، إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس » أو قوله : « أوحى

---

١ ـــ ابن الجوزي : صفة الصفوة ٣ / ٢٣ .
٢ ـــ المصدر السابق ٣ / ١٣٩ .
٣ ـــ ابن خلدون : المقدمة / ٤٦٧ .
٤ ـــ سير أعلام النبلاء ٨ / ١٥٦ ، عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف ١٩٨ ـــ حلية الأولياء ٢ / ٣٥٩ . وقد علق محقق السير الشيخ شعيب على هذا الكلام فقال : « منزلة الصديقين لاتنال بهذا النسك الأعجمي المخالف لما صح عنه ﷺ من ترك التبتل والرهبنة » .
٥ ـــ تاريخ التصوف / ١٩٣ .

الله إلى نبي من الأنبياء » أو « قرأت في الزبور... » (١) .

فمن الواضح ومن خلال قراءة ترجمته في كتب الطبقات أنه متأثر بما ترويه الكتب القديمة عن الزهاد والرهبان ... ومن الواضح أن هذه الكتب قد حرفت ، ولسنا مأمورين بقراءتها بل منهيون عن الأخذ منهم وتقليدهم .

وربما يكون عبد الواحد بن زيد ورابعة العدوية (٢) من أقطاب هذه المرحلة الإنتقالية ، واستحدثت كلمة العشق للتعبير عن المحبة بين العبد والرب ويرددون أحاديث باطلة في ذلك مثل : « إذا كان الغالب على عبدي الإشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكري عشقني وعشقته » . وبدأ الكلام حول العبادة لاطمعاً في الجنة ولاخوفاً من النار ، وإنما قصد الحب الإلهي ، وهذا مخالف للآية الكريمة : ﴿ يدعوننا رغبا ورهبا ﴾ (٣) . ومثل قول رابعة لرجل رأته يضم صبياً من أهله ويقبله : « ماكنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه » (٤) . وهذا تعمق وتكلف لأن الرسول ﷺ كان يقبل أولاد ابنته ويحبهم .

يقول ابن تيمية ملاحظاً هذا التطور : « في أواخر عصر التابعين حدث ثلاثة أشياء : الرأي ، والكلام ، والتصوف ، فكان جمهور

١ ـــ انظر ترجمته في حلية الأولياء ٢ / ٣٥٧ .
٢ ـــ تكلم فيها أبو داود السجستاني واتهمها بالزندقة ، فلعله بلغه عنها أمر ، توفيت بالقدس سنة ١٨٥ هـ . انظر : ابن كثير / البداية والنهاية ١٠ / ١٨٦ . قال ابن تيمية : قال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . انظر الفتاوى ١٠ / ٨١ .
٣ ـــ الأنبياء / ٩٠ .
٤ ـــ سير أعلام النبلاء ٨ / ١٥٦ .

الرأي في الكوفة ، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة ، فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وظهر أحمد بن علي الهجيمي (١) وبنى دويرة للصوفية وهي أول مابني في الإسلام (أي دار خاصة للإلتقاء على ذكر أو سماع) وصار لهم من التعبد المحدث طريق يتمسكون به ، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع ، وصار لهم حال من السماع والصوت ، وكان أهل المدينة أقرب من هؤلاء في القول والعمل ، وأما الشاميون فكان غالبهم مجاهدين » (٢) .

كما لخص هذا التطور الإمام ابن الجوزي فقال : « في عصر الرسول ﷺ كانت كلمة مؤمن ومسلم ، ثم نشأت كلمة زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، هكذا كان أوائل القوم ولبّس عليهم إبليس أشياء ثم على من بعدهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن » (٣) .

هؤلاء الذين اتخذوا طريقة تفردوا بها ويسميهم ابن الجوزي ب (أوائل القوم) الذين جمعوا بين الزهد وبين التعمق والتشدد والتفتيش على الوساوس والخطرات مما لم يكن على عهد السلف الأول ، هؤلاء هم الذين سنتكلم عنهم في الفصل القادم إن شاء الله .

١ ـــ كان تلميذ شيخ البصرة عبد الواحد بن زيد ، وكان يتكلم في القدر ، وقف داراً بالبصرة للمتعبدين . قال الدارقطني : متروك الحديث قال الذهبي : ماكان يدري الحديث ، ولكنه عبد صالح وقع في القدر نعوذ بالله من ترهات الصوفية . توفي سنة ٢٠٠ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٩ / ٤٠٨ .
٢ ـــ الفتاوى : ١٠ / ٣٥٩ .
٣ ـــ تلبيس إبليس / ١٦١ .

الفصل الثاني

أوائل الصوفية

تمهيد :

تطورت الصوفية من الإعتدال إلى الغلو ، من البدع العملية إلى البدع القولية الإعتقادية ، بعد أن دخلت عليها عناصر خارجية ، وهي كأي تفرق يبدأ بسيطاً ساذجاً ثم ينتقل إلى التأصيل والتفريع ، ثم الإيغال في الضلال . ويمكن تقسيم هذا التطور إلى ثلاث مراحل : أوائل الصوفية ومن مشى على طريقتهم ثم تقيد الصوفية بمصطلحات خاصة ، ثم دخول الفلسفة الغنوصية وظهور نظريات الإتحاذ ووحدة الوجود . هذه المراحل أو الطبقات [1] ليست منفصلة عن بعضها وغير محددة بزمن معين وانتهت ، بحيث أن كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ، ولكن هذا التطور حصل في العصور الإسلامية فكان الغالب على بدايات التصوف الإعتدال وعدم الغلو ، ثم إن التصوف بلغ قمة الإنحراف في القرن السابع على يد ابن عربي وابن الفارض وأمثالهما ، وصوفية اليوم مزيج من الإنحراف العملي والعلمي فلايزال يوجد من يردد أقوال الغلاة عن علم وعن غير علم .

إن من أعلام المرحلة الأولى من هو في القرن الثالث

١ ــ نعني بالطبقة هنا الذين يجمعهم منهج واحد وطريقة واحدة ولانعني الجيل الواحد كما هو معروف في مصطلح المؤرخين من كتاب الطبقات .

كالجنيد [1] والسري السقطي [2] ، ومنهم في القرن الرابع كأبي طالب المكي [3] وبداية القرن الخامس كأبي عبد الرحمن السلمي [4] كما أنه ظهر مبكراً من يقول بالحلول كالحلاج [5] ولكن هذا كان شاذاً بالنسبة لانتشار الغلو في القرون المتأخرة . فالقصد أن هذا التقسيم هو للغالب على كل مرحلة .

١ ــ هو أبو القاسم الخزاز ، أصله من نهاوند ومولده في بغداد ، من أقواله : الطريق إلى الله مسدود على الخلق إلا على المقتفين آثار الرسول ﷺ ، تفقه على أبي ثور ، توفي سنة ٢٩٨ هـ . انظر صفة الصفوة ٢ / ٤١٦ .

٢ ــ هو السري بن المغلس خال الجنيد وأستاذه ، يحب العزلة ، تكلم في موضوع المحبة لاطمعاً في الجنة ولاخوفاً من النار ، ومن أقواله قليل في سنة خير من كثير في بدعة . توفي ٢٥٣ هـ ، انظر : طبقات الشعراني ١ / ٧٤ .

٣ ــ محمد بن علي بن عطية ، كان رجلاً صالحاً ، ذكر أحاديث في (قوت القلوب) لاأصل لها . بدّعه الناس في بعض أقواله وهجروه توفي ٣٨٦ هـ . انظر : البداية والنهاية ١١ / ٣١٩ .

٤ ــ محمد بن الحسين الأزدي السلمي ، له عناية بأخبار الصوفية ، صنف لهم تفسيراً على طريقتهم . قال عنه محمد بن يوسف القطان النيسابوري : لم يكن ثقة ، وكان يضع للصوفية الأحاديث ، وفي تفسيره أشياء لاتسوغ أصلاً ، توفي سنة ٤١٢ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٤٧ .

٥ ــ انظر ترجمته في القسم المخصص للملاحق .

أوائل الصوفية :

عرف التصوف في بداياته بأنه رياضات نفسية ومجاهدات للطباع ، وكسر لشهوات النفوس وتعذيب للجسد كي تصفو الروح ، وإذا كان هذا الصفاء الروحي يأتي بدون تكلف عند السلف نتيجة التربية المتكاملة فنحن هنا بصدد تشدد وتكلف لحضور هذا الصفاء ، وبصدد تنقير وتفتيش عن الإخلاص يصل إلى حد الوساوس ، وسنرى من أقوالهم وأحوالهم مايؤيد هذا .

قال الجنيد ــ ويسمونه سيد الطائفة ــ : « ماأخذنا التصوف عن القيل والقال بل عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات » [١] . ويصف معروف الكرخي نفسه فيقول : « كنت أصبح دهري كله صائماً ، فإن دعيت إلى طعام أكلت ولم أقل إني صائم » [٢] ويقول بشر الحافي [٣] : « إني لأشتهي شواء ورقاقاً منذ خمسين سنة ماصفا لي درهم » [٤] . ويرى الجنيد عند شيخه السري السقطي خزف كوز مكسور فيسأله عن ذلك فيقول : أبردت لي ابنتي ماء في هذا الكوز ثم غلبتني عيني فرأيت جارية فسألتها لمن أنت ؟ فقالت : لمن لايشرب الماء البارد وضربته

١ ـ سير أعلام النبلاء : ١٤ / ٦٩ .
٢ ـ صفة الصفوة : ٢ / ٣٢٠ .
٣ ـ هو بشر بن الحارث اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ، أثني عليه في عبادته وورعه ونسكه ، وله أخوات ثلاث كن مثله توفي عام ٢٢٧ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤١ .
٤ ـ صفوة الصفوة ٢ / ٣٢٩ .

بيدها فانكسر [١] . ويروي الجنيد عن بعض الكبراء أنه إذا نام ينادي : أتنام عني ! إن نمت لأضربنك بالسياط ، وحكى الغزالي عن سهل بن عبد الله أنه كان يقتات ورق النبق مرة ، ويشجع الغزالي على السياحة في البراري بشرط التعود على أكل أعشاب البرية والصيد !؟

ومن آداب الصوفية عند أبي نصر السراج : (إيثار الذل على العز ، واستحباب الشدة على الرخاء) [٢] ، ورتبوا أموراً لمن يريد الدخول معهم أو للمريد ومنها : اشتراط الخروج من المال كما يذكر القشيري في رسالته ، وأن يقلل من غذائه بالتدريج شيئاً بعد شيء وأن يترك التزوج مادام في سلوكه [٣] ، وأما أبو طالب المكي فيطلب من المريد ألا يزيد على رغيفين في اليوم والليلة [٤] ، والجنيد يطلب من المريد ألا يشغل نفسه بالحديث [٥] . كما أن من ميزات هذه المرحلة :

١ ــ استحداث مايسمونه (السماع) وهو الإستماع إلى القصائد الزهدية المرققة ، أو إلى قصائد ظاهرها الغزل ويقولون : نحن نقصد بها الرسول ﷺ ، ومنشدهم يسمونه (القوّال) ويستعمل الألحان المطربة .

٢ ــ بدأ الكلام عن كيان خاص مميز يسمى (الصوفية) وظهرت كلمات مثل (طريقتنا) و (مذهبنا) و (علمنا) ، يقول

١ ـ الكلاباذي : التعرف / ١٥٥ . ٢ ـ اللمع / ٢٨ .
٣ ـ الشاطبي : الإعتصام ١ / ٢١٤ . ٤ ـ تلبيس إبليس / ١٤١ .
٥ ـ ربما كان مقصوده الإنتباه إلى تزكية النفس في بداية الطريق دون التعمق في مصطلحات الحديث وإلا فإن ترك الحديث يؤدي إلى الكفر .

الجنيد : « علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ﷺ » (١) .
ويقول أبو سليمان الداراني : « إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة » (٢) والشاهد قوله (من نكت القوم) فهناك إذن قوم متميزون .

٣ ــ صنفت الكتب التي تجمع أخبار الزهد والزهاد تخلط الصحيح بغير الصحيح وتتكلم عن خطرات النفوس والقلوب والدعوة إلى الفقر وتنقل عن أهل الكتاب ، مثل كتب الحارث المحاسبي ، وأبي طالب المكي في (قوت القلوب) ، وصنف لهم أبو عبد الرحمن السلمي في التفسير ، وأبو نعيم الأصفهاني في (حلية الأولياء) . يقول ابن خلدون : « أصل طريقتهم محاسبة النفس والكلام في هذه الأذواق ثم ترقوا إلى التأليف في هذا الفن فألفوا في الورع والمحاسبة كما فعله القشيري في (الرسالة) وذلك بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط » (٣) .

ولنا على هذه المرحلة الملاحظات التالية :

١ ــ هذا التعمق والتشدد في العبادات مع ترك المباحات لم يعهد عند السلف رضوان الله عليهم ، وكان رسول الله ﷺ يأكل اللحم ويحب الحلوى ويستعذب له الماء البارد (٤) ، ولم يأمر ﷺ أحداً من أصحابه بالخروج عن ماله ، والتشدد في الدين كدوام الصيام والقيام هو داء رهبان اليهود والنصارى (٥) ، وترك التزوج وإدامة

١ ــ ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ١٤٢ .
٢ ــ المصدر السابق ٣ / ١٤٢ .
٣ ــ المقدمة / ٤٦٩ .
٤ ــ تلبيس إبليس / ١٥١ .
٥ ــ الدهلوي : حجة الله البالغة / ١٢٠ .

الجوع فيه شبه بالتبتل الذي رده الرسول ﷺ على بعض أصحابه ، وبسبب هذه الرياضات فقد ابن عطاء الأدمي البغدادي عقله ثمانية عشر عاماً ، قال الذهبي معلقاً على ذلك : « ثبت الله علينا عقولنا فمن تسبب في زوال عقله بجوع ورياضة صعبة فقد عصى وأثم » (١) .

وأما السياحة في البراري فهي من السياحة المنهي عنها ، وهي من الرهبانية المبتدعة ، وكأنهم لم يسمعوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أبي أمامة أن رجلاً قال : يارسول الله ائذن لي في السياحة ، قال رسول الله ﷺ : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » (٢) .

يقول ابن تيمية : « وأما السياحة التي هي الخروج في البرية فليست من عمل هذه الأمة » (٣) ، وقول الإمام الذهبي : « الطريقة المثلى هي المحمدية ، وهو الأخذ من الطيبات ، وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف ، فلم يشرع لنا الرهبانية ولا الوصال ولاصوم الدهر والجوع أبو جاد الترهب) (٤) . « وقد لُبِّس عليهم في ترك المال كله ، وكانت مقاصدهم حسنة وأفعالهم خطأ والعجيب من الحارث المحاسبي والغزالي كيف حثوا على ذلك ، وأما استشهاد الحارث بأن عبد الرحمن بن عوف يوقف في عرصة القيامة بسبب مال كسبه من حلال فهذا خطأ وجهل بالعلم وقصة حبس ابن عوف غير صحيحة ، ولم ينه الله عز وجل عن جمع المال وإنما النهي عن القصد بالجمع » (٥) .

١ ــ سير أعلام النبلاء ١٤ / ١٥٣ . ٢ ــ سنن أبي داود ٣ / ٥ كتاب الجهاد .
٣ ــ ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / ١٠٥ وقد نقل كلام الإمام أحمد بن حنبل .
٤ ــ سير أعلام النبلاء ١٢ / ٨٩ ويعني بكلمة (أبو جاد) البداية والمقدمة .
٥ ــ تلبيس إبليس / ١٨٠ .

إن السلف عندما فهموا الإسلام فهماً صحيحاً لم يتعمقوا ويشددوا على أنفسهم ، فهذا سيد التابعين سعيد بن المسيب يقول له مولاه برد : مارأيت أحسن مايصنع هؤلاء ، قال سعيد : مايصنعون ؟ قال : يصلي أحدهم الظهر ثم لايزال صافاً رجليه يصلي حتى العصر ، قال سعيد : ويحك يابرد ، أما والله ماهي بالعبادة ، تدري ماالعبادة ؟ إنما العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله (١) .

إن هذا الجسد مطية للنفس فإذا لم تعط هذه المطية حقها لم تستطع أن تحمل النفس بآمالها الكبيرة ، ولكن عندما يحدث الزهد غير المشروع والتبتل والجوع وترك اللحم ، والإقتصار على كسرة الخبز وشربة الماء ، عندئذ تلزمه خطرات النفس ويسمع أشياء تتولد عن الجوع والسهر ، وربما أدى به إلى أمراض نفسية ، « والوصول إلى العبادة لايكون إلا بالحياة الدنيا ولاسبيل إلى ذلك إلا بحفظ البدن » (٢) « ومجرد ترك الدنيا ليس في كتاب الله ولاسنة نبيه ومافيه ضرر في الدنيا مذموم إذا لم يكن نافعاً في الآخرة » (٣) .

إن الزهد الحقيقي هو الزهد في الدنيا حتى يستوي عنده ذهبها وترابها والزهد في مدح الناس أو ذمهم ، فمن كان هكذا فهو من أطباء القلوب ، فإن بدا منه مايخالف الشريعة نرد عليه بدعته ونضرب

---

١ ـــ ابن سعد : الطبقات ٥ / ١٣٥ .

٢ ـــ الذريعة إلى مكارم الشريعة / ٥٣ للراغب الأصفهاني .

٣ ـــ ابن تيمية : الفتاوى ٢٠ / ١٤٨ .

في وجهه (١) . وقد مدح الخليفة العباسي المنصور عمرو بن عبيد المعتزلي على زهده فعلق ابن كثير : « الزهد لايدل على صلاح فإن بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد مالايطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين » (٢) .

٢ ـــ قد يظن العوام الذين يرون عبادة هؤلاء أنهم أفضل من الصحابة لأنهم لم يسمعوا أن الصحابة كانوا يفعلون مثل هذا والناس يعجبون بالغرائب والتشدد ولايعلمون أن الشريعة جاءت بالطريق الأوسط الأعدل ، وقلة العلم بالآثار والسنن هي التي أوصلت بعض هؤلاء الناس إلى التشدد ، وظنوا أن القصد من الشريعة هو العمل ولذلك فلاداعي للعلم ، وإذا كان من الصعب تكامل الشخصية الإسلامية على مستوى جيل من الناس كما وجد عند الصحابة فلا أقل من اقتفاء آثارهم ماأمكننا ذلك ولانتطرف في ناحية دون أخرى .

٣ ـــ إن السماع الذي استحدثوه هو الذي أنكره الشافعي رضي الله عنه عندما زار بغداد وقال : « خلفت ببغداد شيئاً يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن » (٣) ، ويقول ابن تيمية : « وهذا حدث في أواخر المائة الثانية وكان أهله من خيار الصوفية » (٤) ويقول أيضاً : « وهذه القصائد الملحنة والإجتماع عليها لم يحضرها أكابر الشيوخ كالفضيل ابن عياض وابراهيم بن أدهم والكرخي ، وقد

---

١ ـــ أبجد العلوم : ٢ / ٣٧٤ للقنوجي نقلاً عن الشوكاني .

٢ ـــ البداية والنهاية : ١٠ / ٨٠ .

٣ ـــ يقول ابن القيم : « فإذا كان هذا قول الشافعي في التغبير وهو شعر يزهد في الدنيا ولكنه ينشد بألحان ، فليت شعري مايقول في سماعٍ التغبيرُ عنده تفلة في بحر .
انظر : إغاثة اللهفان ١ / ٢٣٩ .

٤ ـــ الإستقامة ١ / ٢٩٧ .

حضرها طائفة منهم ثم تابوا وكان الجنيد لايحضره في آخر عمره » (١) .

٤ ــ قلنا أنه بدأ الكلام عن كيان خاص يسمى (الصوفية) وقد يقول معترض : إذا كانت القضية قضية أسماء مستحدثة فقد حدث الإنتساب إلى الفقه كالشافعية والمالكية ... أو الإنتساب إلى الحديث ، والجواب هو أنه إذا كانت الأسماء المستحدثة تنسب إلى علم شرعي يحبه الله ورسوله مثل تعلم الفقه والحديث ، ولايؤدي هذا الإنتساب إلى تعصب حول شخص معين فلا مانع من ذلك (والإنتساب قد يكون محموداً شرعاً مثل المهاجرون والأنصار وقد يكون مباحاً كالإنتساب إلى القبائل والأمصار بقصد التعريف فقط ، وقد يكون مكروهاً أو محرماً كالإنتساب إلى مايفضي إلى بدعة أو معصية » (٢) .

٥ ــ إن الكتب التي صنفت في هذه الفترة والتي ذكرنا بعضاً منها ، هذه الكتب كان للعلماء فيها رأي ، قال ابن الجوزي عن كتاب (قوت القلوب) : ذكر فيه الأحاديث الباطلة والموضوعة ، وقال عن (حلية الأولياء) لأبي نعيم : لم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة (٣) . وسئل أبو زرعة عن كتب المحاسبي فقال : إياك وهذه الكتب ، فقيل له : في هذه عبرة ، قال : من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة (٤) .

---

١ ــ الفتاوى ١١ / ٥٣٤ ، والمقصود ب (لايحضره) مايسمى عند الصوفية بالسماع .
٢ ــ ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / ٧١ .
٣ ــ تلبيس إبليس / ١٦٥ .
٤ ــ نفس المصدر / ١٦٧ .

٦ ــ في هذه المرحلة المبكرة يبدو أن هناك تأثيراً للنصارى في تكوين القناعات بتعذيب الجسد كي تصفو الروح . روى أحمد بن أبي الحواري قصة لقائه براهب دير حرملة وقد سأله عن سبب رهبانيته فقال : البدن خلق من الأرض والروح خلقت من ملكوت السماء فإذا جاع بدنه وأعراه وأسهره نازع الروح إلى الموضع الذي خرج منه وإذا أطعمه وأراحه أخلد إلى الأرض وأحب الدنيا . حدث ابن أبي الحواري شيخه أبا سليمان الداراني بمقالة الراهب هذه فقال الشيخ : (إنهم يصفون) وكأنه أعجب بكلام الراهب ولذلك علق الذهبي عليه بقوله : (الطريقة المثلى هي المحمدية) (١) .

٧ ــ إن أهل هذه الطبقة من الصوفية صادقون في زهدهم وبعدهم عن الدنيا ولكن فيهم تعمق وتشدد ووساوس لم يأمر بها الشارع بل لايحبها ونحن لانستبعد أن يكون هناك من يريد إفساد عقائد المسلمين بإدخال العقائد الباطنية ويكون فعله هذا من وراء ستار كما أخذوا التشيع بالمعنى السياسي وأدخلوه في دهاليز الباطنية (٢) ، ولذلك يبدر منهم أحياناً كلمات تجعلنا نتوقف عندها طويلاً كما يروي عن الجنيد أنه قال للشبلي : « نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً ثم خبأناه في السراديب فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ » (٣) . مع أن بعض العلماء يستبعد كلمات تنسب إليه مثل قوله (انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة) يقول ابن تيمية : « فيه نظر،

---

١ ــ سير أعلام النبلاء : ١٢ / ٨٩ .
٢ ــ يقول رشيد رضا : « الذي أستنبطه من طول البحث والمقارنة أن أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسي لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة ثم قلدهم كثير من المسلمين وهم لايعرفون أصلها » انظر : تاريخ الإمام ١ / ١١٥ .
٣ ــ الكلاباذي : التعرف / ١٤٥ .

هل قاله ؟ والجنيد الإستقامة غالبة عليه »[1] .

هذه هي حال الطبقة الأولى فيها زهد مشروع خلط بغير المشروع مع أن أحوالهم في العبادة والأذكار والبعد عن الرياء أحوال عالية ، ثم تطور الأمر بعد هذا بإدخال مصطلحات فيها حق وباطل أو تحتمل هذا وذاك وزاد الإنحراف واتسعت الفرجة والبعد عن السنة وهو ماسنتكلم عنه في الفصل القادم إن شاء الله .

١ ــ منهج ابن تيمية رحمه الله في الجنيد وأمثاله من أوائل الصوفية هو الإعتذار عن بعض كلماتهم أو استبعادها لما يرى من صدقهم في عبادتهم ، وهذا منهج سديد حيث يغلب الإحتياط لدين المسلم حتى لايقع في الرجال . ولكن عندما ننظر إلى مجموع مانقل عن الجنيد ونظرائه فإن الأمر يختلف ، فإن كثرة ماروي عنه تشجع على اعتباره من مؤسسي التصوف .

الفصل الثالث

المصطلحات والغموض

إن أي انحراف عن السنة ــ ولو كان قليلاً ــ وبالمعنى الشمولي للسنة لابد أن يزداد ، وتأتي الروافد من هنا ومن هناك باجتهادات خاطئة أو تصورات باطلة ، فتتسع رقعة الباطل ، ومن العسير عندئذ عودة أصحابه إلى الجادة المستقيمة إلا أن يشاء الله ، وعند تتبعنا للجيل الأول من الصوفية وجدنا أن الطابع الغالب عليهم هو التشدد في ترك الدنيا ، وقهر النفس بالجوع والسهر والتعمق . ثم جاءت المرحلة الثانية أو الطبقة الثانية من الصوفية فمهدت للإنحراف الكبير عندما تبنت مصطلحات خاصة بها ، فيها إيهام وغموض مما يسوغ تفسيرها كل حسب مايريده ، وكل حسب أهوائه . ولم يعلموا أن من أسباب ضلال من ضل من الأمم السابقة هو عدم تحديد معاني بعض الكلمات تحديداً دقيقاً ، مع أنها تحتمل الحق والباطل والخطأ والصواب ، فينشأ عن ذلك اللبس والإضطراب ، وكأن الجميع لايتكلمون لغة واحدة .

وكان من فضل الله على المسلمين أن حذرهم في كتابه الكريم من اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وطلب منهم أن يردوه إلى المحكم حتى لاتضرب آيات الكتاب بعضها ببعض . فإذا كان سبحانه قد أضاف إلى نفسه بعض مخلوقاته فهي إضافة تشريف

وإضافة أعيان كما في قوله سبحانه عن عيسى عليه السلام ﴿ وروح منه ﴾ أو ﴿ ناقة الله ﴾ أو ﴿ سخر لكم مافي السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [1] ، ويبقى أمثال قوله تعالى ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ من الآيات المحكمات .

ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله : بكلمة (لكن) كان عيسى عليه السلام وليس هو الكلمة نفسها . وقال تعالى في حق بني إسرائيل ﴿ ولاتلبسوا الحق بالباطل ﴾ [2] فنهاهم سبحانه عن خلط الحق بالباطل فتلتبس الأمور على الناس فيزيغون ويهلكون .

إن قضية تحديد معنى الألفاظ المجملة والمحتملة للخطأ والصواب أمر مهم جداً ، وقد وقع المتصوفة في هذه المشكلة فتحدثوا عن : الفناء والبقاء ، والصحو والمحو ، والتجريد والتفريد ... الخ هذه المخترعات ، وهي ألفاظ مجملة تحتمل الحق والباطل ومثلهم في هذا كمثل علماء الكلام الذين جاءوا بالمصطلحات اليونانية (كالجوهر والعرض والجسم والمتحيز ، والعلة والمعلول ، والواجب والممكن ...) وأرادوا شرح العقيدة الإسلامية بهذه القوالب المستوردة للتوفيق بزعمهم بين الشريعة والفلسفة ، بينما العقيدة الإسلامية لها مضمونها الخاص وشكلها الخاص وهي تأبى كل الإباء هذا التلفيق .

إن عبارة (الفناء) مثلاً قد تعني وجهاً باطلاً وهو مايسمونه (الفناء عن وجود السّوى) أي ليس موجوداً إلا الله سبحانه ، وكل ماعداه ليس له وجود حقيقي ، وهذه هي وحدة الوجود التي سنتكلم

١ ـــ سورة الجاثية / ١٣ .
٢ ـــ سورة البقرة / ٤٢ .

عنها في الفصل القادم إن شاء الله ، وهذا هو فناء الملاحدة الذين لايفرقون بين خالق ومخلوق ، وقد تعني وجهاً بدعياً وهو أن يغيب عن الناس والخلق ولايشهد سوى الله ، بل يغيب حتى عن عبادة الله ويسميه الصوفية (الفناء عن شهود السّوى) كما يسمونه سُكْراً واصطلاحاً ومحواً وجمعاً ، وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً في ذلك ، وأن الرب رب ، والعبد عبد ، كما يحكى عن أبي يزيد البسطامي [1] أنه قال : « سبحاني ماأعظم شأني » ويعتذر البعض عنه بأنه كان في حالة سقوط الشعور والتمييز [2] ، فهذا الفناء فيه حق وباطل ، فالحق هو الفناء عن حب ماسوى الله والباطل منه هو عدم الشعور والعلم بحيث لايفرق صاحبه بين نفسه وبين غيره ، وقد يؤدي به إلى الكفر الصريح ، فعندما تحدث أبو الحسين النوري (ت ٢٩٥) عن فناء صفات العارف كان ذلك تمهيداً وإرهاصاً لفناء ذات العارف وهو الإتحاد مع الله وهذا كفر ، قال الإمام الذهبي : [فإن الفناء والبقاء من ترهات الصوفية ، دخل من بابه كل إلحادي وكل زنديق ، وأراد قدماء الصوفية بالفناء نسيان المخلوقات وفناء النفس عن التشاغل بما سوى الله ، ولايسلم إليهم هذا أيضاً ، بل أمرنا الله ورسوله بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها ، وتعظيم خالقها ، قال عليه السلام : (حبب إلي

١ ـــ هو طيفور بن عيس ، كان جده مجوسياً فأسلم ، حكي عنه شطحات ناقصات ، ومن العلماء من بدَّعه وخطأه بسببها لأنها تدل على اعتقاد فاسد . انظر : سير أعلام النبلاء ١٣ / ٨٨ ، البداية والنهاية ١١ / ٣٥ .
٢ ـــ الإعتذار عن هذه الشطحات مشكلة ، والمسلمون لهم الظاهر ، ومن تكلم بكلمة الردة وقال أنا أقصد غير ذلك كفر ظاهراً وباطناً ، ويجب أن تمنع مثل هذه الكلمات حتى لاتستغل سبباً للإنحراف والكفر . انظر : تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي للعلامة برهان الدين البقاعي .

من دنياكم النساء والطيب) (١) وكان يحب عائشة ويحب أباها ، ويحب أسامة ، ويحب سبطية ، ويحب الحلواء والعسل ، ويحب وطنه ، ويحب الأنصار] (٢) .

والنوع الثالث من (الفناء) هو مايسمونه (الفناء عن إرادة السّوى) وهذا صحيح ، فهو لايحب إلا في الله ولايوالي إلا فيه ولايبغض إلا فيه (٣) ، وإن لم يسلم لهم التعبير أيضاً لاشتباهه واشتراكه مع سواه مما هو محدث مغلوط . ومن مصطلحاتهم : (الجمع والتفرقة) وقد شرح الجرجاني هذا المصطلح فزاده غموضاً قال : « الفرق مانسب إليك والجمع ماسلب عنك » (٤) وقال الهروي « الجمع هو آخر المنازل والتوبة أولها » (٥) مع أن العبد أحوج مايكون إلى التوبة في نهايته .

وقالوا في (السكر) : هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ، و (الصحو) : رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه (٦) .

واستحدثوا كلمة العشق وهذا لايوصف به الرب تبارك وتعالى ولا العبد في محبته ربه (٧) . وسئل ذو النون المصري عن أول

١ ـــ جامع الأصول ٤ / ٧٦٦ ، قال : أخرجه النسائي وأحمد وقال المحقق : إسناده حسن .
٢ ـــ أعلام النبلاء ١٥ / ٣٩٣ .
٣ ـــ انظر تحقيق هذا الموضوع في مدراج السالكين ١ / ١٥٤ .
٤ ـــ التعريفات / ٧٧ .
٥ ـــ مدراج السالكين ٣ / ٤٣٦ .
٦ ـــ التعريفات / ١٣٢ .
٧ ـــ مدارج السالكين ٣ / ٢٩ ومن أوائل من تكلم عن العشق والقرب أبو حمزة البغدادي المتوفي سنة ٢٨٩ .

درجة العارف فقال : « التحير ثم الإفتقار ثم الإتصال ثم التحير » (١) والحقيقة أننا تحيرنا من مصطلحاتهم هذه التي اخترعوها ليستطيعوا تفسيرها حسب أهوائهم ، ولنتابع تعريفاتهم ؛ قالوا في تعريف اليقين : (اتصال بين وانفصال مابين البين) (٢) ولاندري هل هذا كلام عقلاء أم خبثاء يريدون تشويش الذهن الإسلامي لإبعاده عن العقيدة الإسلامية الواضحة ، وعندما يكاشفون ويقال لهم : لماذا اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد ؟ وهل هذا للتمويه وستر عوار المذهب ؟ يجيبون : مافعلنا هذا إلا لغيرتنا على المذهب كي لايشربها غير طائفتنا (٣) .

قال ابن الأعرابي : « إذا سمعت الرجل يسأل عن الجمع والفناء أو يجيب فيهما فاعلم أنه فارغ » . قال الذهبي : « أي والله دققوا وخاضوا في أسرار عظيمة مامعهم على دعواهم فيها سوى ظن وخيال » (٤) . وحتى يتم التمويه قالوا : إن لنا علماً خاصاً ليس عند غيرنا وهو علم الإشارة وذلك لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لايمكن العبارة عنها بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، واستندوا في ذلك إلى حديث مكذوب : « إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله » (٥) .

وعن طريق علم الإشارة يمكن تفسير القرآن تفسيراً خاصاً ليس له ضابط ولارابط ، ويمكن تأويل كل نص وكل حديث ليتمشى

١ ـــ التعرف / ١٣٣ .
٢ ـــ التعرف / ١٠٣ .
٣ ـــ التعرف / ٨٩ .
٤ ـــ سير أعلام النبلاء ١٥ / ٤١٠ .
٥ ـــ التعرف / ٨٧ .

مع ماقرروه ، وكل شيء يفعل أو يقال يمكن إحالته على الذوق ، وأن هذا الشيء لايفهمه إلا من سلك هذا الطريق وأن الآخرين محجوبون ، ولو كان الاحتجاج بالذوق صحيحاً لاحتج كل مبطل على باطله ، فالملحد يذوق طعم الإتحاد والحلول ، والرافضي يذوق طعم الرفض ، وأنت تجد النصراني في تثليثه له ذوق بحيث لو عرض عليه أشد العذاب لاختاره دون أن يفارق تثليثه (١) . وهكذا تنقلب الموازين وتتغير الحقائق ويسمي تعذيب البدن جوعاً ، والقصور عن الكسب توكلاً وأن هناك فرقاً بين الشريعة والحقيقة (٢) ، وكأن هناك أموراً سرية يريدون الإحتفاظ بها كي لايشار إليهم بأصابع الإتهام ، وإلا فما تفسير هذا الميل نحو الغموض ؟ ربما لأن التفكير السليم فيه صعوبة وفيه دقة وأما الشطحات والمبهمات ففيها راحة وبعد عن الواقع .

تميزت هذه المرحلة أيضاً بما يسمونه المقامات كمقام التوكل والرضا الذي له صلة بموضوع القضاء والقدر ، وهذه الأخطاء استمرت فيما بعد بل زادت .

إن التوكل عندهم من مقامات العامة وهو الأخذ بالأسباب ، وهم لايأخذون بالأسباب بل مستسلمون للأقدار . قال الهروي : « التوكل في طريقه الخاصة عمى عن التوحيد ورجوع إلى الأسباب » كما قال ابن القيم : « بل التوكل حقيقة التوحيد ، ولايتم التوحيد إلا به ، وإنه من مقامات الرسل وهم خاصة الخاصة ، فإن الله سبحانه

١ ـ مدارج السالكين ٣ / ٤٤٢ .

٢ ـ انظر : سميح الزين : الصوفية .

اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها فالتوكل امتثال لأمر الله فكيف يكون من مقامات العامة (١) . وقال أبو سعيد الخراز : « كنت في البادية فنالني جوع شديد فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاماً ، فقلت : ليس هذا من فعل المتوكلين » (٢) فهذا الشيخ خالف السنة في الخروج إلى البادية دون زاد وفهم التوكل فهماً خاطئاً . وقال أحمد بن أبي الحواري : « سمعت أبا سليمان الداراني يقول : لو توكلنا على الله تعالى مابنينا الحيطان ولاجعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص » (٣) وإذا صح هذا عن أبي سليمان فهذا خطأ لأن الرسول ﷺ بنى الحيطان وأخذ بالأسباب وسيرته العملية أوضح مثال على ذلك وقلة العلم أوجبت هذا التخليط (٤) . وقلة العلم هذه هي عدم فهم السنن الكونية وأن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً ولذلك قيل : إن ترك الأسباب ضعف في العقل والإعتماد على الأسباب وحدها شرك ، والصوفية ظنوا أن من أعلى المقامات ترك الأسباب وهذا جهل بحقيقة الإسلام ، وانسحب هذا الفهم الخاطىء على الدعاء فقالوا : (علمه بحالي يغني عن سؤالي) مع أن الله سبحانه يحب من عبده الدعاء وقد جعله سبباً للإجابة ، قال أبو سعيد الخراز « بينما أنا عشية عرفة نازعتني نفسي بأن أسأل الله تعالى فسمعت هاتفاً يقول : أبعد وجود الله تسأل الله غير الله » (٥) فانظر إلى هذا الفهم الصوفي ! من توكلهم بزعمهم أنهم تركوا الإكتساب وهذا من أبين الخطأ والبعد عن المنهج الصحيح ، والأنبياء كانوا يعملون بأيديهم وبالتجارة وبرعي الغنم ، وأخشى أن تكون هذه حيلة للبطالة والكسل .

١ ـ مدارج السالكين ٣ / ٤٧٨ .

٢ ـ التعرف / ١٥٠ .

٣ ـ تلبيس إبليس / ٢٧٨ .

٤ ـ تلبيس إبليس / ٢٧٨ .

٥ ـ التعرف / ١٥٠ .

وأما مقام الرضا فيفسر على أنه الإسترسال مع القدر ، فيكون مستسلماً لما يأتي من عند الله من غير اختيار ، « وهذا يحسن في حال ويحرم في حال فيحسن في حال جريان الحكم الكوني [أي أن يكون الشيء مقدراً دون إرادة المسلم كالمرض والفقر والمصائب] ويحرم في حال جريان الأمر الديني فالإسترسال مع القدر هنا هو انسلاخ من الدين) (١) ومن أركان التصوف عندهم« ترك الاختيار » (٢) . وتستطيع أن تقيس على هذا بقية المقامات والأحوال التي ترد عليهم والتي قلّ أن تسلم من تأويل أو تحريف أو فهم خاطيء وهو الذي أوقع بهم في هذه التهلكات ، حتى أن مثل صاحب « منازل السائرين » يعتبر التكاليف الشرعية أقل مرتبة من رياضاتهم فيقول « ويطوي — يعني السالك على طريقهم — خسة التكاليف » قال ابن القيم معلقاً : « والله إن هذه اللفظة لأقبح من شوكة في العين وحاشا التكاليف أن توصف بخسة وإنما هي قرة عين وسرور قلب وحياة روح » (٣) . والحقيقة أنهم تاهوا في بيداء الحيرة والتشويش وضاعوا في ألغاز ومعميات « الوارد والبادي والعطش والدهش ، وجْمع الجمع وجمع الوجود ، والتجلي والتخلي ، وخاضوا بحار العلم ومابتلت أقدامهم ولذلك منعوا من النور الموروث عن الرسل فرحين بما عندهم من العلوم ، فهم في واد ورسول الله وأصحابه في واد » (٤) .

وابن القيم رحمه الله لايقول جزافاً ولايتهم اعتباطاً ولا هو متعصب ضدهم ، بل هذا هو الواقع ، وهذا كلامهم من كتبهم ، وهو كثير الإعتذار عن الشيخ الهروي صاحب (منازل السائرين) ولاينتقد

١ — مدارج السالكين ٣ / ١٢٩ .
٢ — مدراج السالكين ٣ / ١٥٤ .
٣ — التعرف / ٨٩ .
٤ — مدراج السالكين ٣ / ٤٣٧ .

ويصحح إلا عندما لايجد للإعتذار مساغاً ، ولذلك وصف هذه المصطلحات أصدق وصف وأدقه حين قال : « وإذا تأمله العارف وجده كلحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ولاسمين فينتقل ، فيطول عليك الطريق ، ويوسع لك العبارة ، ويأتي بكل لفظ غريب ، ومعنى أغرب من اللفظ ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً ، ولكن تسمع جعجعة ولاترى طحناً » (١) ، هذه الجعجعة التي أدت سواء عن قصد أو غير قصد إلى المرحلة الثالثة التي هي أخطر مراحل الصوفية وأبعدها عن الإسلام ، وهو ماسنوضحه في الفصل القادم إن شاء الله .

١ — مدارج السالكين ٣ / ٤٣٧ .

الفصل الرابع

الصوفية الوجودية

تعتبر هذه المرحلة من أخطر مراحل الصوفية ، حيث تسربت إليها الفلسفة اليونانية فابتعدت بها عما سبقها من مراحل التصوف بل جعلتها من الصوفية الخارجة عن الإسلام فكانت شبيهة بالنصرانية عندما دخلها الروم ومزجوها بالتثليث والفلسفة ولذلك قيل إن النصرانية ترومت ولم يتنصر الروم ، بل نستطيع أن نجزم من خلال استقراء ماطراً على الرسالات السماوية التي بدلت وحرفت كاليهودية والنصرانية أن للفلسفة دوراً كبيراً في هذا التبديل ؛ فبسبب نقد الفلاسفة للنصوص التوراتية واتهامها بأنها ساذجة أو أساطير ، تحت هذا الضغط راح علماء اليهود يأولون النصوص تأويلات رمزية كما فعل (فيلون) اليهودي ، فأولوا إبراهيم عليه السلام بأنه النور وزوجته سارة بأنها الفضيلة وهكذا فعلوا بقصة آدم وحواء وقصة ابني آدم وقصة يوسف عليه السلام . ومن (فيلون) انتقلت طريقة التؤويل الرمزي إلى النصرانية خصوصاً عندما هاجمها رجال الأفلاطونية المحدثة وممثلوا الثقافة اليونانية ، وأقر رجال اللاهوت النصراني على أنه ورد في الأناجيل أشياء غير معقولة فأولوها تأويلاً يرضى عنه الفلاسفة [١] .

١ ــ انظر البحث الذي كتبه د. عبد الرحمن بدوي عن التأويل بالباطن وأثره في التوراة والإنجيل في كتابه مذاهب الإسلاميين الجزء الثاني .

وفي الإسلام جاء تأثير الفلاسفة بعد ترجمة الكتب اليونانية ككتاب « التاسوعات » لأفلوطين الإسكندري ، نقله إلى العربية عبد المسيح بن ناعمة الحمصي بعنوان « الأثولوجيا » أي الربوبية [١] ، كما ترجم كتاب « أثولوجيا » لأرسطوطاليس وفيه نظرية الفيض والإشراق التي ستلعب دوراً خطيراً في التصوف خصوصاً عند السهروردي [٢] وابن عربي [٣] . وتحت ضغط الفلسفة قام المعتزلة بحذف أو تأويل كل نص يناقض العقل ــ بزعمهم ــ كما غرقوا في الجدل العميق الذي يدور حول ألفاظ (الجوهر ــ والجزء الذي لايتجزأ ــ والجسم ــ والمتحيز و ... الخ) ، ومثلوا دور الترف الفكري أحسن تمثيل ، فانحرفوا بذلك عن الإسلام العملي الإيجابي .

وأما الصوفية فقد دخلت عليهم الفلسفة من باب (التشبه بالإله على قدر الطاقة) فحاولوا إثبات تشبه العبد بالرب في الذات والصفات والأفعال ، كما فعل الغزالي في (المضنون به على غير

١ ــ أحمد أمين : ظهر الإسلام ٤ / ١٥٦ .

٢ ــ يحي بن حبش بن أميرك السهروردي من مؤيدي فلسفة الإشراق التي من زعمائها أفلوطين ، ثبت عليه الإنحلال من الدين وادعاء النبوة فأفتى علماء حلب بكفره وقتل سنة ٥٨٧ . هـ انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١ / ٢٠٧ ، وبدوي : شخصيات قلقة / ٩٥ .

٣ ــ هو أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي ، ولد (بمرسية) سنة ٥٦٠ هـ ونشأ بها ثم ارتحل وطاف البلدان فجاء بلاد الشام والروم والمشرق ودخل بغداد ، كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك المغرب ، اختلف الناس في شأنه فذهبت طائفة إلى أنه زنديق وقال آخرون إنه ولي ولكن يحرم النظر في كتبه ، والصحيح أنه اتحادي خبيث ، ولم يشتهر أمره وكتبه إلا بعد موته لأنه كان منقطعاً عن الناس ، إنما يجتمع به آحاد الإتحادية ولهذا تمادى في أمره ثم فضح وهتك ، توفي سنة ٦٣٨ هـ . انظر : شذرات الذهب لابن عماد ٥ / ١٩٠ والبقاعي / ١٧٨ ، وبدوي : تاريخ التصوف / ٤١ .

أهله) ومن مشى خلفه [١] ، ثم جاء ابن عربي وتلامذته فقالوا بالوحدة المطلقة ، لأن الفلاسفة يقولون : الوجود الحقيقي هو للعلة الأولى (الله) لاستغنائه بذاته ، فكل ماهو مفتقر إليه فوجوده كالخيال . ومن هنا نشأت نظرية « وحدة الوجود » عند ابن عربي وقد انطلقت ابتداء مما يردده الصوفية بشكل عام من أن الموجود الحق هو الله سبحانه ، ويعنون بذلك أن الموجودات والكائنات إنما هي صور زائفة ومجرد أوهام وليست ذاتاً منفصلة قائمة بنفسها ، فمثلها لايستحق أن يطلق عليه الوجود الحقيقي [٢] ، ولكنها حرفت عند ابن عربي عن مفهومها لدى الصوفية بحيث انتهى إلى القول بوحدة الوجود فقال أن الوجود الحقيقي هو الله سبحانه ، ولكننا نرى هذه الكثرة والتعدد قائمة أمام أعيننا فلا يمكن إنكارها ومن ثم فهذه الموجودات كلها ليست سوى الله ذاته ـــ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـــ وكلها مظهر من مظاهره وتجل من تجلياته ، وليست آية من آياته كما مفهوم أهل السنة ، فحقيقة الرب إذن أنه وجود مطلق لاإسم له ولاصفة ولايرى في الآخرة ، وليس له كلام ولاعلم ولاغير ذلك ولكن يرى في الكائنات [١] فكل

١ ـــ ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ٥ / ٨٢ .
٢ ـــ بعض المفكرين في هذا العصر ـــ وهم من أهل السنة ـــ من أطلق عبارة : أن الموجود والحق هو الله سبحانه وإنما قصد بذلك معنى لايصادم الشرع وهو أن الله سبحانه هو الباقي السرمدي بخلاف الموجودات الفانية التي لاتستطيع القيام بنفسها بل هي مستندة إلى وجود الله سبحانه ، وهو معنى وإن لم يصادم الشرع إلا أنه مدخل لكثير من التصورات التي قد تؤدي للوقوع في البدعة ، والإلتزام بالألفاظ الشرعية أولى وأهل السنة يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى حق قيوم على مخلوقاته ، وأنه خلق الكائنات وجعل لها ذواتاً منفصلة لاعلاقة لها بذاته ، وهي موجودة حقيقة وليست صوراً أو أوهاماً وأنها تفنى في هذه الحياة الدنيا ، وأن وجودها مستقل عن الخالق المعبود .
١ ـــ انظر البقاعي في كتابه : تنبيه الغبي ١٩ / ٤٠ وابن تيمية في الإيمان الأوسط / ١٣٢ والشوكاني في قطر الولي / ١٩٠ .

كائن هو الله والله هو كل كائن فاتحد بذلك الوجود مع الخالق المعبود ، وتم له ماأراد من هدم صرح التوحيد وكان هذا القول أشد شركاً من قول النصارى ، إذ أن الكل في هذا التصور المريض إله يعبد .

ويحاول ابن خلدون شرح فكرة ابن عربي ، إذ أن هذه التصورات الباطلة عادة ماتكون غامضة متناقضة حتى على أصحابها ، يقول ابن خلدون : « يعنون بهذه الوحدة أن الوجود له له قوى ذاتية فالقوة الحيوانية فيها قوة المعدن وزيادة ، والقوة الإنسانية فيها قوة الحيوان وزيادة ، والفلك يتضمن الإنسانية وزيادة ، وكذلك الذوات الروحانية (الملائكة) ثم القوة الجامعة التي انبثت في جميع الموجودات ، فالكل واحد هو نفس الذات الإلهية » [١] .

وحين يرد السؤال : كيف يقال بوحدة الوجود ؟ وهناك خالق ومخلوق ومؤمنون وكفار والكفار يعذبون في النار فمن الذي يعذبهم ؟ .. حتى لايرد هذا السؤال راح ابن عربي يحرف كل آيات القرآن الكريم ويطبق باطنيته وكفره في كتابه (فصوص الحكم) فموسى عليه السلام لم يعاقب هارون عليه السلام إلا لأن هارون أنكر على بني إسرائيل عبادة العجل ، وهم ماعبدوا إلا الله لأن الله قضى ألا نعبد إلا إياه ، ولذلك كان موسى أعلم من هارون [٢] . والريح التي دمرت عاد هي من الراحة لأنها أراحتهم من أجسامهم المظلمة وفي هذه الريح عذاب وهو من العذوبة [٣] . ويحكم ابن عربي

١ ـــ المقدمة / ٤٧١ .
٢ ـــ البقاعي / ١٢٠ نقلاً عن فصوص الحكم ـــ فص رقم ١٩٢ .
٣ ـــ المصدر السابق / ٩٥ ـــ فص رقم ١٠٩ .

بإيمان فرعون بقوله تعالى : ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق (١) . وهكذا راح يعيث فساداً في بقية قصص الأنبياء ومن شاء فليرجع إلى كتبه ففي كل سطر سيجد رائحة (وحدة الوجود) . وكلامه هذا في الحقيقة هو إبطال للدين من أصله لأن وعيد الله للكفار لايقع منه شيء فهو وتلامذته يتسترون بإظهار شعائر الإسلام وإقامة الصلاة والتزي بزي النسك والتقشف وتزويق الزندقة باسم التصوف (٢) .

فالفلاسفة لم يقولوا بوحدة الوجود على طريقة ابن عربي ولكنهم هم الذين مهدوا الطريق لهذه النظرية الباطنية بقولهم على الله مالايعلمون ووصفهم إياه بصفات من نسج خيالهم ، وهذا كله بسبب بعدهم عن الشرائع السماوية والأخذ من نور الأنبياء ، ولذلك تخيلوا الإله ذاتاً بسيطة منزهة عن أي شائبة من شوائب التركيب ، والصفات مثل العليم القدير السميع البصير هي عندهم تركيب ، فقالوا أن من أحق صفاته (الوجود) وإذا قيل لهم وجود أي شيء ؟ فالجواب ليس بوجود شيء ، فهو هكذا وجود بلا أية صفة فليس هذا الوجود هو الله سبحانه الذي نعرفه نحن المسلمين والذي أرسل الأنبياء ونزل الكتب ، وإنما هو عندهم وجود مطلق بلا أية صفة ، وطبعاً هذا لايكون إلا تصورات باطلة في أذهانهم وهو غير الواقع . وبما أن هذه الصفة (الوجود) هي أخص وصف لله ، تركب في عقولهم أن كل وجود هو واجب مثل وجود الله ، وبما أن العالم

١ ـــ المصدر السابق ١٢٨ وفي هذا المقام لابد من القول بأن اعتذار البعض عن ابن عربي بأنه يقصد كذا أو كذا ويؤولون كلامه ، هذا غير مقبول . قال العراقي « لايقبل ممن اجترأ على مثل هذه المقالات القبيحة أن يقول أردت بكلامي هذا خلاف ظاهره ولايؤول كلامه ولاكرامة » .

٢ ـــ انظر : تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي للشيخ برهان الدين البقاعي .

موجود فهو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وقاتلهم الله على هذا الإفك المبين (١) .

هذا الكلام من الفلاسفة كان الإرهاص الذي أدى بان عربي إلى القول بوحدة الوجود ، وإن كان مذهبه أكثر شراً من مذهب الفلاسفة ، خاصة وأنه حرَّف آيات القرآن لتنسجم مع نظريته الباطلة وخاصة أن كثيراً من المسلمين المغفلين من يعظمه ويسميه « الشيخ الأكبر » .

طبعاً هناك روافد أخرى أوصلت هؤلاء الناس إلى هذا القول الشنيع الذي يعتبر من أشد المخالفات للإسلام وعقيدة التوحيد ، ومن هذه الروافد الفناء الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، كما أن نفي صفات الله التي قالت بها الجهمية ، وانتشر شيء من أثرها في صفوف المسلمين ، يمكن أن يساعد على نظرية الوحدة ، إن نفي صفة العلو مثلا سيؤدي إلى القول بأنه سبحانه في كل مكان ، ثم وزعوه في الموجودات كلها ، ومع ذلك فسيبقى للفلسفة الدور الأكبر في محاولة تخريب العقيدة الإسلامية الصافية السهلة ، بل بتخريب المجتمعات الإنسانية ، لأنها تقوم على نظريات في الذهن وليست في الواقع ، وهذا مما حدا بعالم كبير كابن تيمية أن يقول محذراً منها بعد أن نفذ إلى أعماقها : « ولاشك أن كل من كان أقرب إلى الشرائع السماوية كان أقرب إلى العقل ومعرفة الحقيقة .

١ ـــ انظر : الشيخ مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من الله رب العالمين الجزء الثالث حيث وضح رحمه الله أثر الفلسفة في نظرية ابن عربي .

وهل رأيت فيلسوفاً أقام مصلحة قرية من القرى » (١) . وهو هنا يلتقي مع مفكر غربي هو الدكتور الكس كايل الذي يرى أن الفلسفة أساءت كثيراً للمجتمعات الغربية حين كانت تنظر في الكتب فقط دون معرفة الواقع العملي ، يقول : « ليس هناك مذهب فلسفي قط استطاع أن يحظى بقبول جميع الناس ، وكل استنباطات الفلاسفة ماهي إلا فروض » (٢) ويتابع نقده للفلسفة : « كان من الممكن للعلم أن يكفل لنا نجاح حياتنا الفردية والإجتماعية ولكننا فضلنا نتائج التفكير الفلسفي فارتضينا أن نأسن وسط المعاني المجردة ، ولاشك أن فلاسفة عصر النور هم الذين مكنوا لعبادة الحرية بصورة عمياء في أوروبا وأمريكا » (٣) .

إذن فالمشكلة واحدة في القديم والحديث ، فعندما يبتعد الناس عن الشرائع السماوية التي جاءت لخير الإنسان في الدنيا والآخرة ، تأتيهم الأزمات تلو الأزمات ، أزمات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، نتيجة هذا الفصام النكد بين مافطر الإنسان عليه من التوجه إلى بارئه وبين شياطين الإنس ومايوحون به ويبدو أن النفس الإنسانية يصعب عليها الإستمرار في طريق الإعتدال فهي إما أن تميل إلى التشدد والغلو أو إلى التساهل والترخص والخروج عن التكاليف وقد يسول الشيطان لمن أحس من نفسه زيادة فهم أنه إن رضي في علمه ومذهبه بظاهر السنة كان مثل العامة ولذلك لابد من التنطع والتبدع والإتيان بالغرائب وهذه شهوات خفية لايدركها ولايبتعد عنها إلا العلماء الربانيون .

١ ــ درء تعارض العقل والنقل ٥ / ٦٥ وابن تيمية هنا يقصد الفيلسوف الذي يعيش بنظريات بعيدة جداً عن الواقع ويعيش بعيداً عن واقع الناس ، ومشكلة الفلاسفة أنهم يعالجون أموراً ليست من اختصاصهم ، وقد جاء الأنبياء والرسل بحلها بأقرب السبل وأيسرها .

٢ ــ تأملات في سلوك الإنسان ١ / ٤٧ .   ٣ ــ المصدر السابق ١ / ٧ .

ولعله من المناسب قبل أن ننهي هذا الفصل أن نذكر راي بعض العلماء في ابن عربي وتلامذته باعتباره زعيم هذه المدرسة الوجودية .

قال الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في ابن عربي : « هو شيخ سوء مقبوح كذاب ، يقول بقدم العالم ولايحرم فرجاً » (١) ويروي ابن تيمية عن الشيخ ابراهيم الجعبري أنه كان يقول : « رأيت ابن عربي وهو شيخ نجس يكذب بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي أرسله الله » (٢) .

وقال ابن تيمية (٣) : ورأيت بخطه في كتابه (الفتوحات المكية) هذين البيتين :

الرب حق ، والعبد حق   ياليت شعري من المكلف
إن قلت عبد ، فذاك رب   أو قلت رب أنّى يكلف

ويقول البقاعي قاطعاً الطريق على من يؤول لابن عربي : « قال الأصوليون : لو نطق بكلمة الردة وزعم أنه أضمر تورية ، كفر ظاهراً وباطناً » (٤) .

ومن تلامذة ابن عربي ابن الفارض (٥) الذي يؤكد وحدة الوجود دون خجل أو مواربة ، وفي قصيدته المشهورة (بالتائية)

١ ــ الفتاوى لابن تيمية ٢ / ٢٤٠ .
٢ ــ نفس المصدر ٢ / ٢٤٠ .
٣ ــ الفتاوى ٢ / ٢٤٢ .
٤ ــ تنبيه الغبي / ٢٣ .
٥ ــ هو عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل المصري المولد ولد سنة ٥٦٦ اشتغل بالفقه في أول حياته ، ثم ترك ذلك واستأذن أباه في السياحة فذهب إلى مكة وانقطع هناك . ثم رجع إلى مصر ، وشرح تائيته السراج الهندي الحنفي والجلال القزويني الشافعي توفي سنة ٦٣٢ ودفن بالمقطم : انظر : شذرات الذهب ٥ / ١٤٩ .

يعيد هذه الفكرة ويكررها حتى لايبقى شك عند القارىء أو السامع مثل قوله :

لها صلاتي بالمقام أقيمها وأشهد أنها لي صلت
كلانا مصل عابد ساجد إلى حقيقة الجمع في كل سجدة
وماكان لي صلى سواي فلم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة
ومازلت إياها وإياي لم تزل ولافرق بل ذاتي لذاتي أحبت

فهل بعد هذا من تصريح ، صلاته لنفسه لأنها هي الله والعياذ بالله ، وحتى لايظن أحد أن هذا (سُكْر) الصوفية ، يؤكد أنه في حالة صحو :

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها
وذاتي بذاتي إذا تحلت تجلت

ولايزال الصوفية إلى الآن يعجبون بهذه التائية ويسمون صاحبها (سلطان العاشقين) رغم مافيها من كفر ، ورغم مايقولون عنه أنه كان يحب الجمال ، وأنه كان يذهب إلى قرية (البهنسا) فيرقص على الدف مع النساء وهكذا يدجلون على الناس ويقولون بأن هذا الرقص من الدين والحقيقة أنها مواخير يخجل منها أي مسلم استروح رائحة الإسلام ، لقد ابتلي المسلمون بمن فسد من هؤلاء الصوفية فبثوا فيهم أوهاماً قد تملك الجاهل وتربك العاقل إذا لم يغلبها بالتمسك بمنهج أهل السنة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

الباب الثاني

بدع الصوفية

الفصل الأول

البدع العلمية

تمهيد :

وقع المتصوفة في بدع علمية وعملية ونعني بالعلمية الأمور النظرية التي اعتنقوها وابتدعوا فيها في العقيدة الإسلامية وأما الأمور العملية فهي الشعائر التي يمارسونها عملياً والتي ابتعدوا فيها أيضاً عن المنهج الإسلامي الصحيح .

وبما أن العمل تابع للعلم فقد قدمنا الكلام عن البدع العلمية ، فمن انحرف وابتدع في العلم فسوف يخرق في العمل ، وهم لم ينحرفوا علمياً إلا بعد أن ابتعدوا عن منهج أهل السنة والجماعة في الإستدلال والنظر واخترعوا أشياء أدت بهم إلى ماوصلوا إليه .

وتسمية هذا الإنحراف بدعة لايخفف من خطره ، فقد تكون

البدعة صغيرة وقد تكون كبيرة تصل إلى حد الكفر ، فمن يعتقد بوحدة الأديان وأن القطب الغوث يتصرف في الكون فقد كفر وأشرك . وأصل البلاء كله هو عدم متابعة الرسول ﷺ والقرون المفضلة ومحاولة الزيادة على ذلك عن سوء نية أو عن حسن نية .

ولايسلم لهم قولهم بالبدعة الحسنة ، لأن البدعة لاتكون إلا سيئة كما جاءت منكرة في حديث الرسول ﷺ « وكل بدعة ضلالة » وهي بهذا الوصف تحتاج إلى تعريف محدد واضح ونختار هنا التعريف الذي جاء في كتاب (الإعتصام) قال : « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه »[1] . فهي طريقة في الدين وليس في الدنيا فلو قال المبتدع لماذا لاتقولون أن استعمال الآلات الحديثة بدعة لقلنا : هذه طريقة في الدنيا ، وهي طريقة مخترعة لم يعهد مثلها من قبل وليس لها أصل أما العلوم المخترعة كعلم النحو وأصول الفقه فهذه لها أصل من حفظ الدين وتدخل في باب المصالح المرسلة ، وهي تضاهي الشرعية أي تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك ولو لم يكن هناك تشابه لما أتى بها المبتدع لأن الضرر المحض تنفر النفوس منه ، ولكن شبهة التشابه هي التي أوقعته في مأزق الإبتداع . والحقيقة أن البدعة تكاد أن تكون علماً على الصوفية لما اشتهرت به من البدع العملية ومع أن كل الفرق قد ابتدعت في الدين مالم يأذن به الله . وسنبدأ بالكلام عن ظاهرة خطيرة عند الصوفية وهي الفصل بين الشريعة والحقيقة ، ثم ماتلا هذا الفصل من بدع استطار شرها وعمّ بلاؤها ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

١ ـــ الشاطبي : الإعتصام ١ / ٣٧ .

المبحث الأول

الشريعة والحقيقة

مصطلح يردده المتصوفة كثيراً ، ويقرنون بينه وبين مصطلح آخر لهم هو الظاهر والباطن ، وسنحاول من خلال هذا المبحث التعرف على معاني هذه المصطلحات وعلاقتها بعضها ببعض .

فالشريعة ـــ كما يرونها ـــ هي مجموعة الأحكام العملية التكليفية أي مايسمى (بالفقه الإسلامي) والحقيقة هي ماوراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار ، فالفقهاء يعلمون الناس أركان الصلاة وسننها وهم يهتمون بأعمال القلوب من المحبة والخشية ... هذا رأي المعتدلين منهم أما غلاتهم فقالوا : إن هذه الأحكام لعوام المسلمين نظراً لضيق عقولهم وقلوبهم عن استيعاب المعاني العلوية دون الإلتزام برسوم وأشكال معينة ، فالصلاة خمس مرات بشكل وترتيب معين ... هو أشبه مايكون بالمعلم الذي يلزم الطالب بواجبات مدرسية لما يعلم عنه من عدم الإستفادة من العلم إن لم يعمل تلك الواجبات ، والمقصود هو العلم فإن كان من الخواص الذين يدركون المقصود الأساسي من الشرائع ـــ وهو ماأطلقوا عليه الحقيقة ـــ فقد حصل المقصود وإن لم يلتزم بها ، فالصلاة هي دوام الصلة مع الله فان استدامت فالحاجة للصلاة تصبح مجرد الوقوف مع الأوامر الشرعية احتراماً لها وإن كانت غير ذي فائدة ، بل إنها

انحرفت بعد ذلك عند البعض إلى القول بإسقاط التكاليف لمن أدرك الحقيقة .

إن بداية الإنحراف كانت هذا الفصل بين الشريعة والحقيقة ، وعند أهل السنة الشريعة هي الحقيقة فالصلاة حركات معينة ولكنها تستلزم الخشية والإنابة ،وهكذا كل الأحكام الشرعية القيام بها يعني الإتيان بها على تمامها كما أرادها الله سبحانه وتعالى .

وقد جرهم ذلك إلى مصطلح آخر وهو الظاهر والباطن . فقد ادعى الصوفية أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، فالظاهر هو مايؤخذ من ألفاظه حسب الفهم العربي أو السياق أو غير ذلك من الأصول المرعية في التفسير وهو مايهتم به علماء الظاهر أو مايطلقونه عليهم (علماء الرسوم) زراية بهم ، أما الباطن فهو العلم الخفي وراء تلك الألفاظ وهو المراد الحقيقي بها وهذا لايطلع عليه إلا الخواص من أصحاب المقامات السامية ويطلقون عليه (الإشارات) ، وهم يغمزون أهل الفقه بأنهم لايهتمون بأعمال القلوب .

... ويسأل أحدهم عن قيمة الزكاة فيجيب : أما على العوام فربع العشر وأما نحن فيجب علينا بدل الجميع ؟!! . « وإذا وقع خلاف في مسألة بين علماء الشرع وبقيت غامضة ، فالقول فيها مايقوله علماء الباطن أهل التصوف » (١) . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾ (٢) قال الغزالي : « وهذا الفن مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه » (٣) .

١ ــ شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ٢ / ١٦٠ والكلام لأحمد الشريف السنوسي .
٢ ــ الإسراء / ٤٤ .
٣ ــ زكي مبارك : التصوف ٢ / ٢٥ .

والحقيقة أن هذه التفرقة غير صحيحة بل هي باطلة وقبيحة ، وأي تجزئة للإسلام فهي من قبيل اتخاذ القرآن عضين ، والإسلام كل متكامل كالجسم الواحد ، فليس هناك ظاهر وباطن ولكن فهم صحيح كما عقله الصحابة عن رسول الله ﷺ ، نعم هناك أعمال للجوارح وأعمال للقلوب والإيمان يزيد حتى يصبح كالجبال وينقص حتى يكون كالنبتة الصغيرة الضعيفة ، ولكن كل هذا اسمه شريعة أو إسلام أو دين وكل تقسيم يشعر بأن هناك تضاداً أو تغايراً كمن يفرق بين العقل والنقل وكأن النقل مضاد للعقل ، أو بين العلم والدين وكأن العلم يخالف الدين ، كل هذا لايكون إلا من ضعف وانحسار أمام أعداء هذا الدين ، هذا إن أحسنّا الظن بهم .

انتقد ابن الجوزي هذا التقسيم فقال : « هذا قبيح لأن الشريعة ماوضعه الحق لصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ماوقع في النفوس من إلقاء الشياطين ، وبغضهم الفقهاء أكبر الزندقة » (١) .

كما أن هذه التفرقة بين الظاهر والباطن أدت بهم في موضوع التفسير إلى تأويل الآيات وتحريفها تحريفاً شنيعاً ، وهذا التأويل المذموم حاولت كل الفرق الضالة الباطنية أن تجد له نصيراً من كتاب الله يتناسب وأهواءها . ولذلك ضبط علم التفسير عند أهل السنة ب (أصول التفسير) حتى لايتحول الأمر إلى فوضى لانهاية لها ، ففي تفسير آية ﴿ فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ (٢) قال صاحب منازل السائرين : « رأى هذه حالة العطش كأن إبراهيم عليه السلام لشدة عطشه إلى لقاء محبوبه لما رأى الكواكب قال : هذا ربي ، فإن العطشان إذا رأى السراب ذكر به الماء » .

١ ــ تلبيس إبليس / ٣٣٧ .
٢ ــ الأنعام / ٧٦ .

ويعقب ابن القيم : « هذا ليس معنى الآية مطلقاً وإنما القوم مولوعون بالإشارات » (١) ، وآية ﴿ فاخلع نعليك ﴾ فسرها الشيخ عبد الغني النابلسي ــ وهو من المتأخرين ــ « أي صورتك الظاهرة والباطنة يعني جسمك وروحك فلاتنظر إليها لأنها نعلاك » (٢) ، وفسر بعضهم هذه الآية : يعني اخلع دنياك وآخرتك إلى آخر هذا الهراء . ويبدو أن البعض منهم كان يشعر بخطأ هذه التفرقة ، فيحذر وينصح ، قال سهل ابن عبد الله : « احفظوا السواد على البياض (يعني العلم) فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق » (٣) . ولكن القوم استمروا في إشاراتهم البعيدة عن العلم فقالوا عن آية ﴿ وإن يأتوكم أسارى ﴾ أي غرقى في الذنوب ، ﴿ والجار ذي القربى ﴾ أي القلب ﴿ والجار بالجنب ﴾ أي النفس حتى أنه يروى عن سهل بن عبد الله نفسه أنه فسر ﴿ ولاتقربا هذه الشجرة ﴾ بقوله : لم يرد معنى الأكل في الحقيقة وإنما أراد أن لاتهتم بشيء غيري) قال الشاطبي : وهذا الذي ادعاه في الآية خلاف ماذكره الناس (٤) .

وقد جمع لهم أبو عبد الرحمن السلمي تفسيراً للقرآن الكريم من كلامهم الذي أكثره هذيان نحو مجلدين ، وليته لم يصنفه فإنه تحريف (٦) والسراج يهاجم الفقهاء لأن علمهم أقرب إلى حظوظ النفس ، وأن علومهم قد يحتاج إليها في العمر مرة وعلوم الصوفية يحتاج إليها دائماً (٧) بينما نجد أن الصحابة لم يتعمقوا في كلامهم ولم يخوضوا في الأمور المتكلفة ولابد في فهم الشريعة من اتباع

١ ــ مدارج السالكين ٣ / ٦١ .
٢ ــ بدوي : شطحات الصوفية / ١٩٥ .
٣ ــ تلبيس إبليس / ٣٢٥ .
٤ ــ القاسمي : محاسن التأويل ١ / ٧٣ .
٦ ــ محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢ / ٣٨٦ نقلاً عن الإمام الذهبي .
٧ ــ اللمع / ٣٦ .

مفهوم العرب الذي نزل القرآن بلسانهم وتفسير القرآن بالمعاني التي تخطر على قلوب المتصوفة غير صحيح ومثل هذا التفسير لم ينقل عن السلف بل هو أشبه بمذهب الباطنية ، وبسبب طموح النفوس إلى التكلف والأشياء المستغربة نشأ التفرق والفرق (١) .

ولقد صدق الشاعر محمد إقبال حين صوّر الشيخ الصوفي بهذه الأبيات :

« متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة
كلامه كله ظن وتخمين
حتى الآن إسلامه زناري
وحين صار الحرم ديراً أصبح هو من براهمته » (٢) .

١ ــ انظر تعليق الشيخ الخضر حسين على كتاب الموافقات للشاطبي ٢ / ٥٢ .
٢ ــ ديوان أرمغان حجاز / ١٣٠ تحقيق د. سمير عبد الحميد .

المبحث الثاني

الحقيقة المحمدية

شعبة من شعب الغلو الذي وقعت فيه الصوفية ، وهي مزيج من الغلو في رسول الله ﷺ والتأثر بالفلسفة اليونانية في تقريرها لأول مخلوق ، والتأثر بالنصرانية التي أضفت صفات الربوبية على المسيح عليه السلام .

والمشكلة أن هذه التي يسمونها (الحقيقة المحمدية) هي غموض كامل وعماء في عماء ، لأنها نشأت في الأصل من خيال مريض وأوهام ليس لها أي رصيد من الواقع ، ولذلك نلاحظ أن أقوالهم في تعريفها أو الكلام عنها غامضة أيضاً ، فالرسول ﷺ أول موجود وأول مخلوق وهو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره (١) ، وهو الذي منه انشقت الأسرار ولاشيء إلا هو به منوط (٢) ، وهو عين الإيمان والسبب في وجود كل إنسان (٣) .

---

١ ـــ ظهر الإسلام ٤ / ٢٢٠ ومعنى القطب الذي تدور عليه الأفلاك أنه المتحكم في حركاتها وسكناتها ، وهو الذي يدير مادق وجل من أمورها وهذه هي حقيقة الألوهية وهي عن نظرية العقل العقال المستمدة من الفلسفة اليونانية .

٢ ـــ هذه هي الصوفية / ٨٧ والكلام لابن مشيش .

٣ ـــ زكي مبارك : التصوف ١ / ٢٣٣ .

وكأن الصوفية لم يستسيغوا أن يقال : إن رسول الله ﷺ هو كما وصفه القرآن الكريم بشراً رسولاً وهم جعلوا أقطابهم تتصف بما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه ، فكيف برسول الله ﷺ فابتدعوا ماأسموه (الحقيقة المحمدية) وعلى أساس هذه النظرية ندرك مغزى مايقول البوصيري :

وكل آي أتى الرسل الكرامُ بها
فإنما اتصلت من نوره بهم

وقوله :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقول ابن نباتة المصري :

لولاه ماكان أرض ولاأفق
ولازمان ولاخلق ولاجبل

وقد كان رسول الله ﷺ يخشى على أمته من الغلو فقال ﷺ محذراً : « لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله » (١) . ولكن الذي فعله هؤلاء هو أكبر من الغلو ، إنه الشرك والضلال ، وإلا فكيف تفسر قول الشيخ الدباغ « إن مجمع نوره لو وضع على العرش لذاب » (٢) وقول أبي العباس المرسي : « جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا هو عين الرحمة ، قال تعالى : ﴿ وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ » (٣) . فانظر إلى هذا الإستنتاج العجيب .

---

١ ـــ أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية . انظر : مختصر الشمائل للشيخ الألباني / ١٧٤ ، وقال عنه : حديث صحيح .

٢ ـــ هذه هي الصوفية / ٨٧ .

٣ ـــ لطائف المنن / ١٢ .

إنها المضاهات بعينها ، فإذا كان المسيح ابن الله عند النصارى فلماذا لايخترع الصوفية (الحقيقة المحمدية) ، وهذا ناتج عن نظريتهم في وحدة الوجود (١) .

ومن المؤسف أن المستشرق (نيكلسون) في كتابه كلاماً صحيحاً عن شخصية الرسول ﷺ بينما غلاة الصوفية تاهوا في معمياتهم وسراديبهم ، يقول : « إذا بحثنا في شخصية محمد ﷺ في ضوء ماورد في القرآن ، وجدنا الفرق شاسعاًبينهما وبين الصورة التي صور بها الصوفية أوليائهم ، ذلك أن الولي الصوفي أو الإمام المعصوم عند الشيعة ، قد وُصفا بجميع الصفات الإلهية ، بينما وصف الرسول في القرآن الكريم بأنه بشر » (٢) .

١ ــ انظر : التصوف لزكي مبارك .
٢ ــ هذه هي الصوفية / ٨٥ .

المبحث الثالث

وحدة الأديان

خرافة كبيرة من خرافات الصوفية ، وشطحة من شطحاتهم الكثيرة ، وهي لاتخرج إلا من خيال مريض يظن أنه يتسامح إنسانياً ، ولكنها في نفس الوقت فكرة خطيرة لأنها تصادم سنن الله في الكون والحياة ومنها سنة الصراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، والجمع بين الكل على قدم المساواة هو خبث مركز لهدم الإسلام أو هذيان مقلد لايدري مايقول ، وإلا فكيف نسوي بين من يعبد الله سبحانه وتعالى وحده وبين من يعبد البقر أو حرف كتب الله وعبد أنبيائه ، كيف نجمع بين الإيمان والكفر ، هذا لايكون إلا ممن يؤمن بوحدة الوجود كابن عربي وتلامذته الذين يعتقدون أن كل موجود على الأرض صحيح ولاداعي للتفرقة ، والله أوسع من أن يحصره عقيدة معينة فالكل مصيب « وأما عذاب أهل النار فهو مشتق من العذوبة » ؟!! (١) .

ويترجم ابن عربي هذه العقيدة شعراً فيقول :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان

١ ــ هذه هي الصوفية / ٩٥ .

وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

وينسج على منوال صديقه ابن الفارض فيقول :

وماعقد الزنار حكماً سوى يدي
وإن حل بالإقرار فهي حلت
وإن خرّ للأحجار في البد عاكف
فلاوجه للإنكار بالعصبية

وإذا كان بعض المعتدلين يحذرون من كتب ابن عربي مع أنهم لايعتقدون بكفره ويبررون أقواله ويأولونها فإننا لم نسمع منهم أحداً يحذر من شعر جلال الدين الرومي مع أن المعجبين به كثر وخاصة بين مسلمي الهند وتركيا ، وهذه إحدى قصائده يتشبه فيها بأستاذه ابن عربي :

انظر إلى العمامة أحكمها فوق رأسي
بل انظر إلى زنار زاردشت حول خصري
فلاتنأ عني لاتنأ عني
مسلم أنا ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي
توكلت عليك أيها الحق الأعلى
ليس لي سوى معبد واحد
مسجداً أو كنيسة أو بيت أصنام
ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي
فلاتنأ عني ، لاتنأ عني (١)

١ ـــ مجلة العروة الوثقى عدد ٦١ لعام ١٤٠٣ هـ برئاسة تحرير عبد الحكيم الطيبي .

فصلوات اليهود ، وعقد زنار النصارى ، وبد الوثنية في الهند ومساجد الله كلها عند هؤلاء ساح فساح يعبد فيها الله (١) .

ونحن وإن كنا لانتهم كل المتصوفة بهذه البدعة لأن القول بها ضلال وكفر وانحراف ولايقول به إلا غلاتهم ، إلا أن أجواء الصوفية ربما تساعد على نشوء مثل هذه الأفكار أم قريباً منها ، فالإستغراق في توحيد الربوبية وأن الله رب كل شيء ومليكه ، وفي القضاء والقدر الكوني الذي يسري على المؤمن والكافر ، دون الإلتفات إلى جانب الأمر والنهي الشرعيين والمخاطب بهما المؤمنين والذي هو جانب توحيد الألوهية ، والإستغراق في كلمات ذوقية مثل الحب الإلهي والعشق الإلهي ، كل هذا أدى إلى قول أبي يزيد البسطامي عندما اجتاز بمقبرة اليهود : « معذورون » ومر بمقبرة المسلمين فقال « مغرورون » ثم يخاطب الله سبحانه وتعالى : « ماهؤلاء حتى تعذبهم حطام جرت عليهم القضايا ، اعف عنهم » (٢) وكأنه يريد أن يثبت رحمته للجنس البشري كله ، وكأنه أرحم من الله سبحانه بعباده ، ومن هذا القبيل ماروى الأمير شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي (٣) أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : « لاتحتقرن أحداً لامسلماً ولانصرانياً ولايهودياً ولاكافراً لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك إذ أنت لاتدري ماذا تكون خاتمتك » (٤) . وهذا الكلام غير صحيح من الشيخ السنوسي لأننا عندما نحتقر الكافر نحتقره لكفره وعندما يسلم نحترمه لإسلامه ونحن لنا الظاهر ، ولكن

١ ـــ هذه هي الصوفية / ٩٨ .
٢ ـــ بدوي : تاريخ التصوف / ٢٨ .
٣ ـــ من زعماء الحركة السنوسية التي ظهرت في ليبيا في العصر الحاضر ولهم مواقف طيبة ضد الإستعمار الإيطالي .
٤ ـــ حاضر العالم الإسلامي ٢ / ١٦٤ .

أثر التصوف واضح فيه وإن كنت لاأعتقد أنه ممن يقول بوحدة الأديان .

إن هذه العقيدة شبيهة بأفكار الماسونية التي تدعو إلى وحدة الإنسانية وترك الإختلاف بسبب الأديان فليترك كل واحد دينه وعقيدته وإنما تجمعنا الإنسانية ، دعوة خبيثة ملمسها ناعم ولكنها تحمل السم الزعاف في أحشائها .

* * * * * * * *
* * * * * *
* * * *

المبحث الرابع

الأولياء والكرامات

من أكثر الأشياء التي يدندن حولها الصوفية قديماً وحديثاً موضوع الأولياء والكرامات التي تحصل لهم ، وقبل أن نتكلم عن مدى مطابقة مايذهبون إليه للكتاب والسنة ، قبل هذا لابد من تعريف الولي وكيف تطورت هذه اللفظة لتصبح مصطلحاً خاصاً علماً على فئة معينة ثم نتكلم عن الكرامات وماهو مقبول منها وماهو مردود .

جاء في كتاب (قَطْر الولي على حديث الولي) [1] : الولي في اللغة : القريب والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والتقرب ، والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين ، وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [2] أي يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون مايجب عليهم اتقاؤه من المعاصي ، قال ابن تيمية : الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها . وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب والنصرة هو الذي أراده القرآن الكريم من كلمة ولي ومشتقاتها في كل موضع أتى بها فيه ، سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أعداء الله . ومن ثم

---

١ ـــ هذا الجزء من المبحث عن الولي مختصر من هذا الكتاب للإمام الشوكاني مع مقدمة وتحقيق الدكتور ابراهيم هلال .

٢ ـــ يونس / ٦٣ .

فليس لنا أن نخرج هذا المصطلح عن المعنى الذي حدده القرآن بلسان عربي مبين . يقول ابن حجر العسقلاني : « المراد بولي الله : العالم بالله تعالى ، المواظب على طاعته .» ، هكذا كان استعمالها وظلت النظرة إليها بهذا المعنى إلى أن دخلت أوساط الشيعة ثم في دائرة الصوفية فأطلقوها على أئمتهم ومشايخهم مراعين فيها اعتبارات أخرى ، غير هذه الإعتبارات الإسلامية فأصبحت محصورة في طائفة خاصة بعد أن كانت صفة محتملة لأي إنسان يقوم بنصرة دين الله من عباده المسلمين ، وأول من صرف هذا المعنى إلى معنى خاص هم الشيعة فأطلقوها على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه على اعتبار أنه هو وذريته (بشراً نورانيين من طينة مكنونة تحت العرش) ثم أضاف لها الشيعة والصوفية (العلم الديني) لأن الشيعة يعتقدون أن علي ابن أبي طالب أخذ علماً خاصاً عن الرسول ﷺ .

والقشيري من الصوفية يرى : « أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء العصمة من المعاصي والمخالفات » وهذه قلدوا فيها الشيعة الذين يعتقدون العصمة لأئمتهم ، وربما تلطف الصوفية فسموها (الحفظ) كما يقول الكلاباذي « ولطائف الله في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه ... » وأكبر مقامات الولي عند الصوفية هو (الفناء) وهو باب الولاية ومقامها أما عند ابن عربي فهي مراتب ومنها مرتبة الولاية الخاصة وهم الورثة لأنهم أخذوا علمهم عن الله مباشرة !!؟ ، وهم عند ابن عربي أفضل من الأنبياء نظراً لما هم عليه من ذوق أدركوا به علم الوجود ووقفوا على سر القدر .

هذا هو التحديد التعسفي لمفهوم الولاية عند المتصوفة ، أما شخصية الولي في القرآن الكريم فهي شخصية إيجابية يترسم خطى

الدين في كل ماأمر أو نهى ، والصحابة ومن تبع أثرهم من العلماء العاملين هم أولى الناس بهذا اللفظ ويصدق عليهم حديث : « من عادى لي ولياً ... » وطريق الوصول إلى الولاية عند الصوفية طريق معكوس لأن الغاية من مجاهداتهم هي معرفة الله أو الفناء ، والمفروض أن معرفة الله سبحانه هي خطوة أولى للإيمان وهذه المعرفة فطرية كما يحدثنا القرآن ، والعمل الصالح هو الذي يوصل إلى أن يحب الله عبدَه ، وأما فناؤهم فهو يوصلهم إلى كفر الإتحاد والحلول فطريق الولاية عند أهل السنة سهل ميسر ومن أول هذا الطريق تبدأ المحبة بين الله سبحانه وعبده بينما طريق الصوفية طريق شكلي آلي ، لابد أن يمر المريد بكذا وكذا ثم يصل إلى شطحات يظن فيها أنه شاهد الحق . وأفضل الأولياء عند أهل السنة الأنبياء والرسل بينما عند الصوفية النبي يقصر عن الفلاسفة المتألهين في البحث والحكمة كما يقول السهروردي المقتول على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، فالولي عند أهل السنة هو ذاك المسلم الإيجابي الذي يقوم بالطاعات ، والولي عند الصوفية هو المستغرق في الفناء (١) .

بعد هذا البيان والإيضاح لكلمة الولي وكيف تطورت ، والمعنى السني لها ، لابد من توضيح المقصود ب (الكرامات) وماهو رأي أهل السنة فيها ؟ وهل التزم الصوفية بهذا الرأي ؟ وهل هناك ارتباط بين الولاية والكرامة ؟ فنقول :

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون وسيره على سنن محكمة مطردة لاتتعارض ولاتتخلف ، وربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها وأودع في الأشياء خواصها ، فالنار للإحراق ، والماء

١ — انتهى مانقلناه مختصراً وبتصرف عن كتاب (قطر الولي) .

للإرواء ، والطعام للجائع ، ثم هذا النظام الكوني البديع المتناسق الشمس والقمر والنجوم ، وتعاقب الليل والنهار ... كل بنظام محكم ، فإذا لم ترتبط الأسباب بنتائجها وخرقت هذه العادة المألوفة بإذن الله لمصلحة دينية أو دعاء رجل صالح ، فهذا الخرق إذا كان لنبي فهو معجزة ، وإذا كان لأناس صالحين فهو كرامة وهذه الكرامة إن حصلت لولي حقاً فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ وتحصل ببركة إتباعه .

وهذه الخوارق إما أن تكون من جهة العلم بأن يسمع النبي مالايسمع غيره أو يرى مالايراه غيره يقظة ومناماً أو يعلم مالايعلم غيره وحياً وإلهاماً ، أو فراسة صادقة لعبد صالح ، وإما أن تكون من باب القدرة والتأثير مثل دعوة مستجابة أو تكثير الطعام وعدم إحراق النار ، وقد حصل للصحابة رضوان الله عليهم كرامات من هذا النوع وكانت إما لحاجة أو حجة في الدين ، كما أكرم الله سبحانه أم أيمن عندما هاجرت وليس معها زاد ولاماء فكادت تموت من العطش وكانت صائمة ، فلما كان وقت الفطر سمعت حساً على رأسها فإذا دلو معلق فشربت منه ، وكان البراء بن مالك إذا أقسم على الله أبرّ قسمه ، وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ، ومشى أمير البحرين العلاء بن الحضرمي وجنوده فوق الماء لما اعترضهم البحر ولم يكن معهم سفن تحملهم وألقي أبو مسلم الخولاني في النار فلم تحرقه (١) .

١ ـ ابن تيمية : الفتاوى ١١ / ٢٧٩ وفي هذا الجزء بحث قيم حول المعجزات والكرامات .

هذه حوادث صحيحة وقعت للصحابة رضوان الله عليهم ، وأكثر منها وقع في عصر مابعد التابعين . فأهل السنة لاينكرون الكرامات كما ينكرها المبتدعة ، وهم يعلمون أن الله الذي وضع الأسباب ومسبباتها قادر على خرق هذه السنن لعبد من عباده ، ولكن الصوفية جعلوا مجرد وقوعها دليلاً على فضل صاحبها حتى ولو وقعت من فاجر قالوا هذه كرامة لشيخ الطريقة ولذلك لابد من ملاحظات وتحفظات حول هذا الموضوع .

أولاً: هذه الخوارق كانت تقع للصحابة دون تكلف منهم أو تطلب لها أو رياضات روحية يستجلبون بها هذه الخوارق ، بل تقع إكراماً من الله لهم أو دعاء يرون فيه مصلحة دينية إما لحجة أو لحاجة للمسلمين كما كانت معجزات نبيهم ﷺ ، أما المتأخرون فيطلبونها ويتكلفون لها الرياضات الروحية وربما أفسد جسمه ونفسيته بسبب هذا مع أن « طلب الكرامات ليس عليه دليل ، بل الدليل خلاف ذلك فإن ماغيب عن الإنسان ولاهو من التكاليف لايطالب به » (١) وهذا من التأثر بالفلاسفة حيث يقررون رياضات معينة للوصول إلى هذه الخوارق .

ثانياً: إن كرامات أولياء الله لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى والولي لله هو المحافظ على الفرائض والسنن والنوافل ، عالماً بأمر الله عاملاً بما يعلم فمن صفت عقيدته وصح عمله كان ولياً لله يستحق إكرام الله له إن شاء ، فهذا إذا خرقت له العادة لاتضر ولايغتر بذلك ولاتصيبه رعونة ، وقد لاتحصل لمن هو أفضل منه فليست هي بحد ذاتها دليلاً على الأفضلية ، فالصديق رضي الله عنه لم يحتج إليها ، وحصلت لغيره من الصحابة ، كما أنه ليس كل من خرقت

١ ـ الشاطبي : الموافقات ٢ / ٢٨٣ .

له العادة يكون ولياً لله كما أنه ليس كل من حصل له نِعَمٌ دنيوية تعد كرامة له ، بل قد تخرق العادة لمن يكون تاركاً للفرائض مباشراً للفواحش فهذه لاتعدوا أن تكون إما مساعدة من شياطين الجن ليضلوا الناس عن سبيل الله ، أو استدراج من الله ومكر به أو رياضة مثل الرياضات التي يمارسها الهنود والبوذيون الكفرة ثم يضربون أنفسهم بآلات حادة ولاتؤثر فيهم أويتركون الطعام أياماً عديدة إلى غير ذلك ويظن الفسقة أن هذه كرامة لهم .

ثالثاً: هناك سؤال مهم في هذا الصدد وهو لماذا كانت هذه الحوادث من خرق العادات قليلة في زمن الصحابة والتابعين ثم كثرت بعدئذ ؟ يجيب ابن تيمية : « لأنها بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه فيها مايقوي إيمانه ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك لعلو درجته (١) ، كما أن عدم وجودها لايضر المسلم ولاينقص ذلك في مرتبته (٢) والصحابة مع علو مرتبتهم جاءتهم هذه الخوارق إكراماً لهم أو لحاجة في الدين ، وكثرتها في المتأخرين دليل على ماقاله ابن تيمية أو لتطلبهم إياها بالرياضة الروحية . (٢)

رابعاً: إن معجزة هذا الدين الكبرى هو القرآن الكريم الذي أنزله الله على قلب محمد ﷺ ، وعندما طلب منه ﷺ معجزات مادية رفض ذلك لأن هذا ليس هو منهج هذا الدين وقد ذكر القرآن الكريم هذا الطلب ، قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض

---

١ ــ هذا فيما ثبت صحة نقله من الكرامات إلا أننا لانغفل أنه بعد هذا العصر بدأ أهل الأهواء والبدع في نشر مذاهبهم ولانرى مانعاً من أن يكون هؤلاء قد استظهروا على صحة مذاهبهم باختلاق كرامات لاأساس لها من الصحة تناقلتها الألسن فكثرت فيها الكرامات فيما تلى ذلك من العصور .

٢ ــ الفتاوى : ١١ / ٣٢٣ .

ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (١) .

كما أمر ﷺ أن يبرأ من دعوى الغنى والقدرة وعلم الغيب إلا ماعلمه الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل لاأقول لكم عندي خزائن الله ، ولاأعلم الغيب ، ولاأقول لكم إني ملك إن أتبع إلا مايوحى إلي ﴾ (٢) ، ولذلك كانت حياته وسيرته تجري كبقية عادات البشر ومألوفاتهم مع ماأعطي من شرف المنزلة (٣) ، وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة لم يطر في الهواء ولم تطو له الأرض وإنما سار كما يسير أي راكب ويقطع المسافة في تسعة أيام ، لماذا ؟ لأن هذا هو الأصل ، الأصل أن يسير الناس على السنن الكونية التي أودعها الله في الخلق ، ولكن كثرة الناس يؤذيها أن يكون الكون سائراً على قانون محكم ويسعدها أن يكون هذا القانون بيد المجاذيب والدراويش يتصرفون به (٤) .

وتبقى الحقيقة أن الإستقامة على طريق الهدى ، طريق السنة والإتباع ، طريق الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، هذه الإستقامة هي عين الكرامة ، فإن حصل بعدئذ خرق للعادة إكراما من الله سبحانه وتعالى لمؤمن صادق فهذه ـــ يجب أن يخفيها ولايذيعها ويشكر الله سبحانه على مامنّ به عليه .

---

١ ــ الإسراء : ٩٠ / ٩٣ .

٢ ــ الأنعام / ٥٠ .

٣ ــ الشاطبي : الموافقات ٢ / ٢٤٨ .

٤ ــ انظر : زكي نجيب محمود في كتابه : ثقافتنا / ٧٢ .

المبحث الخامس

الأقطاب والأوتاد

بعد أن حرف الصوفية كلمة ولي عن معناها الذي أراده القرآن الكريم اخترعوا مايسمونه بالأقطاب والأوتاد والأبدال ... تسميات ماأنزل الله بهامن سلطان ، يرتبون بها أوليائهم ترتيباً فيه مضاهاة للنصارى الذين يرتبون رجال الدين عندهم بدأ بالشماس وانتهاء بالبابا كما أنه فيه تشبه بالشيعة في ترتيب الأئمة وكذلك ترتيب النصيرية والإسماعيلية في أئمتهم كالسابق والتالي والناطق والأساس [1] ، وقد رتبوا أوليائهم حسب أهميتهم على الشكل التالي :

١ — القطب .
٢ — الأوتاد الأربعة .
٣— الأبدال وعددهم أربعون وهم بالشام .. ؟!
٤ — النجباء وهم الذين يحملون عن الخلق أثقالهم .
٥ — النقباء .

وماهي حقيقة القطب عندهم ؟ يجيب مؤسس الطريقة التيجانية : « إن حقيقة القطبانية هي الخلافة عن الحق مطلقاً ، فلايصل إلى الخلق شيء من الحق (الله) إلا بحكم

١ — انظر الفتاوى لابن تيمية ١١ / ٤٣٩ .

القطب » [1] ، ثم قسموا القطب إلى نوعين : نوع هو من البشر مخلوق موجود على هذه الأرض ، يستخلف بدلاً عنه حال موته أقرب الأبدال له (لاحظ التشبه بالنصارى) وقطب لايقوم مقامه أحد وهو الروح المصطفوي وهو يسري في الكون سريان الروح في الجسد [2] . أما الرفاعي فقد تعدى هذه الأطوار فيقول لأحد تلامذته : « نزه شيخك عن القطبية » [3] وعند أبي العباس المرسى مقام القطبيه فوقه مقام الصديقية [4] وعند الشاذلي « يكشف له عن حقيقة الذات » [5] .

وأما الأوتاد فهم أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة أركان من العالم شرق وغرب وشمال وجنوب [6] .

والأبدال سبعة رجال من سافر من موضع ترك جسداً على صورته حياً بحياته [7] .

إن المسلم ليتملكه العجب عندما يقرأ أو يسمع مايقوله هؤلاء من أمثال الجرجاني وغيره الذين يدعون العلم والمعرفة ، إن هذه أمور خطيرة تمس جوهر العقيدة الإسلامية ، إن الإعتقاد بأن أحداً غير الله سبحانه يتصرف في هذا الكون هو شرك أكبر وكيف يرضى الله عن أمة تشرك به صباح مساء ، مع أن الله سبحانه وصف أكابر أوليائه بالصديقين كأبي بكر والسيدة مريم والدة المسيح عليه السلام فيأتي هؤلاء ليحادوا الله ورسوله ويقولوا : القطبية هي مرتبة فوق

١ — هذه هي الصوفية / ١٢٥ .
٢ — المصدر السابق / ١٢٥ وانظر هامش كتاب تنبيه الغبي / ٣٢.
٣ — طبقات الشعراني ١ / ١٤٤ .
٤ — لطائف المنن / ١٠٩ .
٥ — نفس المصدر / ١٢ .
٦ — الجرجاني : التعريفات / ٣٩ .
٧ — المصدر السابق / ٢٣ .

الصديقية وأما مصادمة كلامهم للعقل فهذا من البديهيات الأولية ، لأن الخرافة لايمكن أن يصدق بها عقل . أوتاد وأقطاب يتحكمون في العالم وهؤلاء سبعة وأولئك أربعة ، من أين جاءوا بهذا التحديد وهذا العدد ؟ ومن أين جاءوا بهذا القطب الذي جعلوه نائباً لله ؟ كأن الله سبحانه ملك من الملوك يحتاج إلى نواب سبحانك هذا بهتان عظيم وإفك مبين (١) ، وهذا الكلام وكلامهم عن الحقيقة المحمدية ووحدة الأديان لانستطيع أن نصنفه بأنه هلوسة وتخبطات مصروع لاغير لأننا نكون عندئذ غافلين عن حقيقة هذه المذاهب ، وإنما هي غنوصية (٢) لهدم الإسلام .

١ ــــ جاء في (الفتاوى البزازية) : « من قال أن أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر » انظر كتاب (غاية الأماني) لشكري الآلوسي ٢ / ٦٦ ومانقله عن الشيخ صنع الله الحنفي في موضوع الأولياء والأقطاب والأوتاد ٢ / ٦٦ من نفس الكتاب أيضاً .

٢ ــــ الغنوصية : فرقة دينية فلسفية متعددة الصور مبدؤها أن المعرفة الحقة هو الكشف عن طريق الحدس الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف وليس عن طريق العلم والإستدلال ، فهي نوع من التصوف يزعم أنه المثل الأعلى للمعرفة ، ويعتقد أنه ليست هناك حواجز أو فروق بين الأديان ، ومن هنا كان خطرها ، وهي مأخوذة من اللفظ اليوناني (غنوسيس) يعني (معرفة) وقد نشأت في القرن الأول الميلادي بتأثير اختلاط الثقافة اليونانية بثقافة الشرق ومن زعمائها(أفلوطين) فيلسوف مصري متصوف مزج الفلسفة بالديانة المسيحية والسحر والأساطير عاش في القرن الثالث الميلادي ، انظر ابراهيم هلال في مقدمة الولاية والطريق إليها / ٧٧ .

المبحث السادس

الشطح واللامعقول

يروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : « لو أن رجلاً تصوف أول النهار لايأتي الظهر حتى يصير أحمق » (١) ، وسواء صحت هذه الرواية عن الشافعي أم لم تصح فإن الإتجاه العام لدى الصوفية هو الإبتعاد عن العقل والعقلانية وذلك لأنهم يرون أنه لايمكن الوصول إلى الأحوال والمقامات العالية إلا بإلغاء العقل ، ولذلك يذكرون حوادث لمشايخهم ويقررون أموراً يأباها العقل بل يكذبها ، مع أن العقل شرط في معرفة العلوم وهو بمنزلة البصر في العين فإذا اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس وإن إبعاد العقل وعزله تماماً هو رجوع إلى الأحوال الحيوانية (٢) ومن المعلوم أن مناط التكليف في الإسلام هو العقل ولكن الصوفية كل شيء عندهم ممكن ، وكل شيء يصدق مهما كانت غرابته ، لأنه لاشيء يرد علي مشايخهم ، وإذا رددت فأنت محجوب لاتفهم في مثل هذه الأمور ولذلك أصبحت قصصهم أضحوكة لأهل الأديان المنسوخة كما يقول الآلوسي (٣) .

١ ــــ تلبيس إبليس / ٣٧٠ .

٢ ــــ انظر ماكتبه ابن تيمية في الفتاوى ٣ / ٣٣٨ كما أنه كتب عشر مجلدات في بيان أنه لاتعارض بين الشريعة المنقولة والحقيقة المعقولة .

٣ ــــ محاكمة الأحمدين / ٤٩٠ .

ولأن الناس عجزوا بعد سقوط بغداد عن ربط الأسباب بالمسببات فربما كان التصوف الوحيد الذي نجا من تلك الكارثة فهرع الناس إلى المتصوفة يمنحونهم البركة فامتلأت البلاد بأرباب الطرق (١) .

وحتى لايظن أننا نظلم ونتهم فهذه صور من اللامعقول عند الصوفية منتزعة من كتاب (الطبقات الكبرى) للشعراني . وهو يترجم لهؤلاء ولايعلق بشيء لاعتقاده بصحتها ، بل ينقل قصص المجاذيب ويترضى عنهم ، وقد يقال بأنها مكذوبة عليهم ولكن الشعراني نقلها ولم ينكرها والذين يقرأون للشعراني من عصره وحتى هذا الوقت لايقولون : نحن ننكر مثل هذه الأمور ويجب أن تحذف من كتبنا ، فالمشكلة في هؤلاء الذين يبررونها ويصدقونها فعلاً وهذه النماذج مأخوذة من عصور مختلفة إلى عصر المؤلف في القرن العاشر الهجري .

١ ــ ذكر في ترجمة الشيخ أحمد الرفاعي أنه : « إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ، ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد شيئاً فشيئاً حتى يعود إلى جسمه المعتاد ويقول : لولا لطف الله ربي مارجعت إليكم » (٢) .

٢ ــ الشيخ أبو عمرو بن مرزوق القرشي : « كان الرجل العربي إذا اشتهى أن يتكلم بالأعجمية أو العجمي يريد أن يتكلم العربية يتفل الشيخ في فمه فيصير يعرف تلك اللغة كأنها لغته الأصلية » (٣) .

مساكين الطلبة الذين يدرسون اللغات الأجنبية في هذا العصر

١ ــ انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ٤ / ٢١٩ .
٢ ــ الطبقات ١ / ١٤٣ .
٣ ــ الطبقات ١ / ١٥٢ .

فلو أن الشيخ يعيش معهم لاستراحوا وأراحوا ...!

٣ ــ قال تقي الدين السبكي : « حضرت سماعاً فيه الشيخ رسلان فكان يثب في الهواء ويدور دورات ثم ينزل إلى الأرض يسيراً يسيراً ، فلما استقر أسند ظهره إلى شجرة تين قد يبست فأورقت واخضرت وأينعت وحملت التين في تلك السنة » (١) والعجب هنا ليس من الشيخ رسلان ولكن من عالم مثل السبكي كيف يقبل بأن يذكر الله بالرقص في الهواء وكيف يصدق هذا إذا صحت رواية الشعراني عن السبكي .

٤ ــ أبو العباس أحمد الملثم : يقول الشعراني عنه : « وكان الناس مختلفين في عمره ، فمنهم من يقول : هذا من قوم يونس ، ومنهم من يقول : إنه رأى الإمام الشافعي ، فسئل عن ذلك ، فقال : عمري الآن نحو أربعمائة سنة وكان أهل مصر لايمنعون حريمهم منه في الرؤية والخلوة (٢) .

٥ ــ الشيخ إبراهيم الجعبري : كان له مريدة تسمع وعظه وهو بمصر وهي بأرض السودان من أقصى الصعيد (٣) .

٦ ــ حسين أبو علي : « من كمّل العارفين ، كان كثير التطورات ، تدخل عليه فتجده جندياً ، ثم تدخل عليه فتجده سبعاً ، ثم تدخل فتجده فيلاً (ياألطاف الله) » (٤) . تخيل هذا الذي من كمّل العارفين يتحول إلى سبع وإلى فيل ... ؟!

٧ ــ ابراهيم بن عصيفير : « كان يغلب عليه الحال وكان يمشي أمام الجنازة ويقول زلابيه ، هريسه ، وأحواله غريبة ، وكان يحبني وأنا في بركته وتحت نظره » (٥) . قد يكون هذا مجنون لاتكليف

١ ــ نفس المصدر ١ / ١٥٤ .
٢ ــ نفس المصدر ١ / ١٥٧ .
٣ ــ الطبقات ١ / ٢٠٣ .
٤ ــ نفس المصدر ٢ / ٨٧ .
٥ ــ نفس المصدر ٢ / ١٤٠ .

عليه ، أما أن يقول الشعراني : سيدي إبراهيم ، وكنت في بركته وتحت نظره ، فهذا مما لاينقضي من العجب ، وماراي صوفية اليوم هل ينكرون على الشعراني هذا الكلام ؟ لاأعتقد ، بل يبدوا أن هؤلاء وأمثالهم هم أقرب إلى الظن بأن الحقيقة إنما ينطق بها البلهاء قبل أن ينطق بها العلماء [1] .

ومن أثر الصوفية وكتب الشعراني وغيره أن أساتذة في جامعات مصر ، أساتذة في الطب والفيزياء والكيمياء ، تكون عقولهم سليمة عند البحث العلمي وتمسخ عند الحديث عن الولي الفلاني كيف طار في الهواء أو غاص في الماء [2] ، لاشك أنها ازدواجية تحتاج إلى تحليل نفسي لمعرفة أسبابها ودوافعها ، وقد رأينا طلاب الجامعات في بلاد الشام كيف يتبعون دجالاً مخرفاً ، ظاهر الكذب والإحتيال ، إن هؤلاء المشايخ يقومون بعملية غسل دماغ للمريد بطريقة شيطانية خبيثة تجعل طلاب الجامعات بل وأساتذتهم يسيرون وراء الشيخ كالقطيع ، وتبقى أجواء الصوفية غير العقلانية هي العامل الأهم .

إن قمة إلغاء العقل عند الصوفية هو مايسمونه (بالشطح) وهي أن يتكلم أحد مشاهيرهم بكلمات غير معقولة أو تتضمن كفراً وزندقة في الظاهر ويقولون : إنه قالها في حالة جذب وسكر أما في حالة الصحو فيتراجع عنها وقيل في تعريف (الشطح) : « كلمة عليها رائحة الرعونة والدعوى تصدر عن أهل المعرفة باضطرار

١ ـــ زكي نجيب محمود ثقافتنا / ٧٢ .
٢ ـــ لاحظ هذا الإنفصام الدكتور زكي نجيب محمود وطبعاً الدكتور هنا لايدافع عن الإسلام الحقيقي وإنما يدافع عن العقل واعتناقه بالمذهب الوضعي المنطقي العلماني الإتجاه .

واضطراب » [1] .

وهذه نماذج من شطحاتهم : قال أبو يزيد البسطامي « إن جهنم إذا رأتني تخمد فأكون رحمة للخلق ، وما النار والله لئن رأيتها لأطفأتها بطرف مرقعتي » [2] .

والدسوقي يعلن أن أبواب الجنة بيديه ومن زاره أسكنه جنة الفردوس [3] وأبو الحسن الشاذلي يعوم في عشرة أبحر : خمسة من الآدميين : محمد وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وخمسة من الروحانيين : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح [4] وأحمد بن سليمان الزاهد شفعه الله في جميع أهل عصره [5] .

وشطحاتهم لاتنتهي ونكتفي بما أوردنا كنموذج للرعونة والدعوى وأقوالهم هذه مرفوضة جملة وتفصيلاً ولاتستحق بذل الجهد لتبريرها فقاعدة الإسلام الركينة أننا نحكم بالظاهر كما دلت جملة الأحكام الشرعية فلامجال لمدع أن يقول بأن باطن أقوالهم مخالف لظاهرها ، ويجب أن يصان الإسلام عن مثل هذا الشطح واللامعقول ، بل الشرك لأن من يتصرف في الجنة والنار فقد اتخذ نفسه نداً لله وشريكاً ، قال ابن عقيل « ومن قال هذا كائناً من كان فهو زنديق يجب قتله » [6] .

وإذا كانت الجنة بيد الدسوقي فلينم البطالون وليستريحوا من عناء الجهد والتعب والأمر لايحتاج إلى علم أو عبادة أو جهاد بل مجرد زيارة الشيخ تفتح له أبواب الجنة أليست هذه نسخة أخرى عن صكوك الغفران ، وأما نحن فنستغفر الله حتى من إيراد أقوالهم .

١ ـــ بدوي : شطحات الصوفية ١ / ٢٢ .
٢ ـــ انظر : تاريخ التصوف لعبد الرحمن بدوي .
٣ ـــ هذه هي الصوفية / ١٢١ .
٤ ـــ لطائف المنن / ٥٧ .
٥ ـــ طبقات الشعراني ٢ / ٨٢ .
٦ ـــ تلبيس إبليس / ٣٤٣ .

الفصل الثاني

البدع العملية

المبحث الأول

تربية ذليلة

« أنت أسير في قيد الملا والصوفي ، أنت لاتأخذ الحياة عن حكمة القرآن ليس لك بآيات القرآن شأن إلا أن تموت بسهولة بسورة يس »

إقبال

وضع الصوفية قواعد عامة لتربية مريديهم وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء تردد مايقال لها بلا تفكير ولاشخصية مستقلة ، بل انقياد أعمى ، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين ومشية معينة وشيخ معين وطريقة معينة . ومن هذه القواعد المتعارفة بينهم :

— كن بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسل .
— لاتعترض فتنطرد .
— من قال لشيخه لم ؟ لايفلح .
— من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان .

ومشت الجماهير المغفلة وراء الشيوخ يقبلون الأيدي وينحنون لهم بالتعظيم كلما رأوهم ، لايتكلمون إلا إذا تكلم الشيخ ، يصدقون بكل مايقول ، ويحملون له حذاءه وسجادته . وقد فلسفوا كل هذا في كتبهم تحت عنوان (آداب المريد) فقالوا : « ومن الأدب تعظيمه ظاهراً وباطناً ، ولاتصاحب له عدواً ولاتعادي له صديقاً ، ولاتكتم عنه شيئاً مما خطر ببالك (مثل اعترافات النصارى) ، ولاتسافر ولاتتزوج إلا بإذنه ، وأعظم من هذا قالوا : وحرم على المريدين السؤال لأن الشيخ قد يكون جاهلاً فينفضح [١] .

وهذا الأسلوب في تربية الأتباع ليس مستحدثاً بل تكلم عنه القشيري في (رسالته) فقال : « من صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة ، ثم إن الشيوخ قالوا : حقوق الأستاذين لاتوبة منها » [٢] .

وقد أدى هذا الأسلوب إلى الغلو في المشايخ ، والغلو في الصالحين فالغزالي هو صاحب الصديقية العظمى برأي أبي العباس المرسي [٣] ، والشيخ نجم الدين يستحي أن يصلي باتجاه القبلة وخلف الشيخ أبو العباس المرسي (القطب) فأدار وجهه باتجاه القطب !! ولكن أبا العباس كان متواضعاً فقال له : أنا لاأرضى خلاف السنة [٤] فقط خلاف السنة ترك القبلة ؟! وقد كان أحمد الشريف السنوسي — من المعاصرين — شديد الإعتقاد بعمه محمد

١ — إن ماأورده أهل السنة من آداب المتعلم بين يدي العالم ، واحترام العلماء وتوقيرهم ، يختلف عن ذلة الخضوع النفسي عند مريدي الصوفية.
٢ — هذه هي الصوفية / ١٠١ .
٣ — لطائف المنن / ٧٧ .
٤ — المصدر السابق / ٧٤ .

المهدي الذي لايرى فوق طبقته أحداً إلا سيد الكائنات محمداً ﷺ » (١) .

وانتقلت عدوى هذه الطريقة في التربية إلى الآباء فربوا أبنائهم على الطاعة العمياء وأجبروهم على عادات معينة فيخرج الطفل شخصية ضعيفة .

ولنا علي هذه التربية الملاحظات التالية :

١ ـــ هذه الأساليب في تربية المريدين هي أساليب ماكرة إما لتغطية ماعليه الشيخ من جهل بالدين وقلة بضاعة في العلم ، أو لممارسة أشد أنواع السيطرة على عقول وقلوب الناس وباسم احترام الشيخ . وقولهم (العلم في الصدور لا في السطور) إنما هو صرف للتلاميذ عن كتب الفقه والحديث لأنه إذا قرأ فربما يتفتح عقله ـــ فينتبه لما عند الشيخ من دجل وخرافات .

٢ ـــ لم يترب أصحاب رسول الله ﷺ هذه التربية الخانعة ولكنهم تربوا تربية القيادة والرجولة ، فكان أحدهم يسأل رسول الله ﷺ : أوَحْيٌ هذا أم هو الرأي والمشورة ؟ فإن كان الرأي والمشورة أدلى برأيه كما فعل سعد بن معاذ في غزوة الخندق عندما رأى رسول الله ﷺ مصالحة قبائل غطفان ، وكان ﷺ بقيادته الحكيمة يستمع لهم ويناقشهم وجوه الرأي ولايقول لهم : كيف تعترضون علي وأنا سيد الخلق ورسول من رب العالمين ؟ ومع حبهم الشديد لرسول الله ﷺ كانوا لايقومون له ولايقبلون يديه كلما دخل وذلك لمعرفتهم أنه يكره المبالغة في تعظيم البشر ، وعقل الصحابة عن رسول الله ﷺ هذه التربية فكان أول ماتكلم به أبو بكر الصديق

١ ـــ شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ٢ / ١٦٠ .

رضي الله عنه عندما تولى الخلافة « وإن أسأت فقوموني » ويقول : « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله برأي » والصوفية يقولون : الشيخ يسلم إليه طريقته ، وأي طريقة مع الشرع ؟ ويكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقادة الجيوش وأمراء الأقاليم : « لاتضربوا أبشار الناس فتذلوهم » ذلك لأن الشعب الذليل لاخير فيه ، كما ذكر القرآن الكريم قصة بني إسرائيل عندما كانوا أذلاء تحت حكم فرعون ، فلما أراد موسى إخراجهم إلى العزة والكرامة قالوا له : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ﴾ (١) .

وعقل التابعون هذه التربية فكانوا يكرهون « أن توطأ أعقابهم » (٢) وهو أن يمشي التلاميذ وراء الشيخ ، ويقولون : « إنها فتنة للتابع والمتبوع » (٣) ، ولم يعتد الصحابة تقبيل يد رسول الله ﷺ وإذا وقع فيكون نادراً ، وذهب بعض العلماء إلى كراهية تقبيل اليد مطلقاً كالإمام مالك ، قال سليمان بن حرب : هي السجدة الصغرى (٤) . وعن أنس بن مالك قال : « قلنا يارسول الله أينحني بعضنا لبعض ؟ قال : لا » (٥) .

٣ ـــ أما لماذا تسير هذه الألوف من البلهاء وراء شيوخ الصوفية ربما يكون هروباً من الواقع ، ولعلها تصادف متنفساً غير حقيقي

١ ـــ سورة المائدة / ٢٤ .

٢ ـــ زهير بن حرب : كتاب العلم / ١٤٦ المنشور مع ثلاث رسائل بعنوان الإيمان ـــ تحقيق الألباني .

٣ ـــ المصدر السابق / ١٣٨ .

٤ ـــ المسائل السجدية ٢ / ١٢٣ ط. ١٣٤٤ هـ .

٥ ـــ سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٢٠ كتاب الأدب .

لمشاكلهم وأرجح أنه ابتعاد عن التكليف الذي يفرضه الإسلام وخاصة في أوقات الشدة والعسرة ، وبعض الناس يصدقون أغرب القصص لمجرد رغبتهم في أن تكون هذه القصص صحيحة والواقع أنها غير صحيحة [1] .

* * * * * * * *
* * * * * *
* * * *

١ ــ انظر كتاب : كيف تفكر ، تعريب منير البعلبكي ــ ط. دار العلم للملايين .

المبحث الثاني

المتصوفة وعلم الحديث

من أصعب الأمور على المتصوفة وخاصة المتأخرين منهم الإهتمام بالعلوم الشرعية وخاصة الحديث والفقه ، لأن هذه العلوم تكشف ماهم عليه من جهل وإذا دخلت في قلوب وعقول التلاميذ فلايبقى حولهم أحد ، أما المتقدمون فكان لهم عناية بالعلوم الشرعية ولكن إما أن يكون أحدهم مفصوم الشخصية فتجده عالماً في الفقه وأصوله ولكن عندما يتكلم في التصوف ينقلب إلى شخصية أخرى كأبي حامد الغزالي ، وإما أن يترك العلم بعد أن يكون قد أخذ بقسط وافر منه ، باعتبار أن العلم وسيلة للعمل فإذا وصل إلى العمل فلاداعي للعلم ، وهذه مغالطة لأن المسلم يحتاج للعلم حتى آخر لحظة من حياته ، وقد رمى أحمد بن أبي الحواري كتبه في البحر وقال : نِعْمَ الدليل كنتِ .

وأبو حامد الغزالي يبرر هذا البعد عن علوم الشريعة وهذا الميل من المتصوفة إلى علم الكشف فيقول : « إعلم أن ميل أهل التصوف إلى الإلهية دون التعليمية ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم بل قالوا الطريق تقديم المجاهدات والإقبال على الله ويقطع الإنسان همه من المال والولد والعلم ويقتصر على الفرائض والرواتب ولايقرن همه بقراءة قرآن ولايكتب حديثاً » .

يقول ابن الجوزي معلقاً على كلام الغزالي : « عزيز علي أن يصدر هذا الكلام من فقيه فإنه لايخفى قبحه ، فإنه في الحقيقة طي لبساط الشريعة » (١) . ومن الأوهام التي وقعوا فيها قولهم : نحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لايموت وأهل الحديث يأخذون علمهم ميتاً عن ميت وأنشد أحد شيوخهم : (٢)

إذا طالبوني بعلم الورق   برزت عليهم بعلم الخرق

وبسبب إعراضهم عن الحديث جمعوا الغث والسمين والموضوع والضعيف في كتبهم مثل (الإحياء) و (الرسالة) و(حقائق التفسير) وهذه بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة الباطلة وكيف استندوا إليها وقرروا بها مذهبهم :

١ ـــ قال بعض العارفين : أول المعرفة حيرة وآخرها حيرة وذكروا حديثاً باطلاً : « زدني فيك تحيراً » قال ابن تيمية : هذا حديث كذب والرسول ﷺ يقول : « ربي زدني علماً » (٣) .

٢ ـــ ذكر محمد بن طاهر المقدسي في مسألة (السماع) حديث الأعرابي الذي أنشد النبي ﷺ هذه الأبيات :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلاطبيب لها ولاراقي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقبتي وترياقي

وأنه ﷺ تواجد عندما سمع ذلك حتى سقطت البردة عن منكبيه ،

---

١ ـــ تلبيس إبليس / ٣٢٣ .

٢ ـــ هو أبو بكر الشبلي قال عنه الذهبي : كان يحصل له جفاف دماغ فيقول أشياء يعتذر عنه فيها وله مجاهدات عجيبة انحرف فيها مزاجه ، انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ٣٦٨ .

٣ ـــ الفتاوى ١١ / ٣٨٤ .

قال ابن تيمية : « هذا حديث مكذوب موضوع » (١) ولاندري كيف يروون هذا وأين عقولهم ؟ ولعلّ الحيات لسعت عقولهم وليس قلوبهم .

٣ ـــ رووا حديثاً « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » وهو من كلام أهل الشرك والبهتان وقد سمعنا بعض مشايخ الصوفية في هذا العصر يحدث به ويعتقده .

٤ ـــ « ألبسوا الصوف ، وشمروا ، وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا ملكوت السماء » ذكر هذا أبو طالب المكي في (قوت القلوب) (٢) ، وهل يتكلم الرسول ﷺ بمثل هذا الكلام ، وهل هذا إلا اختراع لتأييد مذهب التصوف بلبس الصوف .

هذه نماذج قليلة وغيض من فيض مما امتلأت به كتبهم كالرسالة للقشيري حيث ذكر فيها الصحيح والضعيف والموضوع وحيث يروي عن الفضل بن عيس الرقاشي وهي من أوهى الأحاديث وأسقطها (٣) ، وارجع إلى (الإحياء) لترى العجب العجاب ، مما يدلنا على عدم احتفائهم بعلم الحديث أو الفقه ، بل ضربهم بالعلم كافة عرض الحائط .

---

١ ـــ الفتاوى ١١ / ٥٦٣ .

٢ ـــ زكي مبارك : التصوف ١ / ٤٤ .

٣ ـــ الفتاوى لابن تيمية : ١٠ / ٦٨٠ .

المبحث الثالث

البطالة والانحلال

كان أوائل الصوفية أصحاب مجاهدات وعبادات ، صادقين مع أنفسهم وإن كانت بعض أعمالهم فيها تعمق وتشدد ومخالفة للسنة كما سبق أن قررنا ، ثم ظهر بعد ذلك أجيال بنوا التكايا والزوايا وهي دكاكين للبطالة والطبل ، مستريحين من كدّ المعاش ، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص ، يطلبون الدنيا من كل ظالم ، وأين جوع (بشر) وورع (السري) وأين جد (الجنيد) (١) ، مع أن بناء الأربطة والتكايا ولو للتعبد والإنفراد هو بدعة في حد ذاته لأن بناء أهل الإسلام المساجد ، وبناء التكايا فيه تشبه بالنصارى لإنفرادهم بالأديرة . وقد قيل لبعض الصوفية أتبيع جبتك ؟ قال : إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصطاد وقد استغرب الإمام محمد بن الحسن الشيباني من أكلهم الطعام عند الناس لايسألون عن حلال أو حرام (٢) .

ونسو أوتناسوا أن الإسلام يأبى الركون إلى الكسل والبطالة ، وأن الزهد هو ترك مافي أيدي الناس والإستغناء عنه تنزهاً وليس الحصول على مافي أيدي الناس تنطعاً وقد نهى رسول الله ﷺ عن السؤال وأمر بالإكتساب والعمل فقال : « لأن يحتزم أحدكم حزمة

---

١ ـ انظر ماكتبه ابن الجوزي وأطال في بطالات الصوفية في كتابه : تلبيس إبليس .
٢ ـ الكسب / ٤٤ .

من حطب على ظهره فيبيعها خير من أن يسأل رجلاً فيعطيه أو يمنعه » (١) ، وقال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى » (٢) .

وكان سعيد بن المسيب يتجر بالزيت وكان أبو حنيفة يتجر بالقماش ... هكذا كان كبار العلماء والزهاد يعملون بأيديهم ويتحرون الكسب الحلال .

وكان الأوائل يمتنعون عن الزواج تشدداً وتعمقاً ثم تطور الأمر بالمتأخرين من الصوفية إلى مؤاخاة النساء وإعطاء الطريقة للمريد ، وحفلات الذكر المختلطة ، مما يشعر بدنوهم من مذهب الإباحية عند الباطنية لأن نظرية وحدة الوجود ـــ التي استفحلت عند متأخري الصوفية ـــ تشجع على الإباحية « لأن الثواب والعقاب يصبح من المشكلات فمن الذي يثيبنا حين نحسن ؟ ومن الذي يعاقبنا حين نسيء ؟ إذا كان الإنسان جزأً من الله ، إنها خطر على عالم الأخلاق ، بل تأتي على قواعده من الأساس ، ولذلك عاش بعض الصوفية عيشة التفكك والإنحلال (٣) ، وقد كان لابن الفارض وهو من شيوخ وحدة الوجود ، كان له مغنيات بالقرب من قرية (البهنسا) يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة وهو يرقص ويتواجد (٤) .

لم يرض عن هذا التطور بعض الصوفية المعتدلون كالشيخ أبي سعيد الأعرابي الذي يقول في كتابه (طبقات النساك) : « إن آخر من تكلم في هذا العلم الجنيد وأنه مابقي بعد إلا من يستحي من

---

١ ـ النسائي ٣ / ٩٣ باب الزكاة .
٢ ـ نفس المصدر ٣ / ٦٠ .
٣ ـ زكي مبارك : التصوف ١ / ١٥٥ وانظر ابن حزم : الملل والنحل ٤ / ٢٢٦ .
٤ ـ الآلوسي : جلاء العينين / ٧٩ .

ذكره » (١) ، كما حكي عن سهل التستري قوله : « بعد سنة ثلاثمائة لايحل أن يتكلم بعلمنا هذا لأنه يحدث قوم يتصنعون للخلق (٢) ولكن الصوفية استمرت في تدهورها وأصبحت اكتساباً وتملقاً ، ولبسوا جلود الضأن وحملوا قلوب الذئاب .

* * * * * * * *
* * * * * *
* * * *

١ ــ آدم متز : الحضارة الإسلامية ٢ / ٣٩ .
٢ ــ المصدر السابق ٢ / ٣٩ .

المبحث الرابع

السماع والذكر

في البداية ، وعند أوائل الصوفية كانوا يحضرون مجلس (السماع) وهو الإجتماع في مكان معين لسماع منشد صاحب صوت حسن مع استعمال الإيقاع الموسيقي ، ينشد قصائد الزهد وترقيق القلوب ، ثم تطوروا إلى إنشاد قصائد الغزل وذكر (ليلى) و (سعدى) ويقولون نحن نقصد بذلك رسول الله ﷺ ، هذه القصائد التي تهيج الحب المطلق ، الحب غير المعين ، فكلٌ يأخذه حسب هواه ومايعتلج في قلبه من حب الأوطان أو حب النساء ...

وقد أباح لهم هذا السماع أبو حامد الغزالي وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم ، واحتجوا بأشياء واهية ضعيفة ، وليس هذا موضع مناقشة حكم الإسلام في الغناء ، فقد رد عليهم العلماء مثل ابن الجوزي وأجاد ابن القيم في مناقشة هذا الموضوع في كتابه (إغاثة اللهفان) ، وتبقى الحقيقة أن الأمة المسلمة أمة جادة ولايحلل هذا الغناء إلا من لايفقه الإسلام حق الفقه .

ولم يقتصر الأمر على هذه القصائد بل تطور إلى ذكر الله بالرقص والدف والغناء ، وعندما تقام الحضرة (١) تبدأ التراتيل بذكر

١ ــ مصطلح عند الصوفية يعني الإجتماع على ذكر الله بالرقص على شكل حلقة يكون الشيخ في وسطها وكأنه قائد أوركسترا .

اسم الله المفرد (الله) بصوت واحد ، ولكن عندما يشتد الرقص ويلعب الشيطان برؤوسهم يرفعون عقيرتهم أكثر ويتحول اسم الله إلى (هو) ثم لاتسمع بعدها إلا همهمة ، وقد يجتمع مع هذا الصراخ والقفز في الهواء أخلاط الناس من النساء والأولاد لرؤية هذا (التراث الشعبي) ، حقاً إنها مهزلة اتبعوا فيها سنن الذين من قبلنا فقد جاء في مزامير العهد القديم عن اليهود « ليبتهج بنو صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص ، بدف وعود ، سبحوه برباب ، سبحوه بصنوج الهتاف » (١) .

جاء في (ترتيب المدارك) للقاضي عياض : « قال التنيسي : كنا عند مالك بن أنس وأصحابه حوله فقال رجل من أهل نصيبين : عندنا قوم يقال لهم الصوفية يأكلون كثيراً ثم يأخذون في القصائد ، ثم يقومون فيرقصون . فقال مالك : أصبيان هم ؟ فقال : لا . قال :أمجانين هم ؟ قال : لا هم مشايخ وعقلاء . قال : ماسمعت أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا » (٢) .

وقد يكون من أسباب فعلتهم هذه هو أن النفس تريد أن تغطي شهواتها باسم الدين والذكر والحضرة . ولو كشفت بصراحة عن نوازعها لكان الخطب أهون لأنها عندئذ تبقى في دائرة المعصية وهي أقل خطراً من البدعة . والله سبحانه وتعالى وصف الذاكرين له باطمئنان قلوبهم وخشوعهم وإخباتهم ، وقد كان السلف إذا سمعوا القرآن خافوا وبكوا واقشعرت جلودهم ، وهذا عكس الرقص والطرب ، ولم يأمر الله سبحانه حين أمر الناس بالعبادة أن يأكلوا

١ ـــ هذه هي الصوفية / ١٤٣ .

٢ ـــ ترتيب المدارك ٤ / ٥٤ ط. المغرب وقد حاول صاحب الكتاب (حقائق عن التصوف) محاولة سمجة للإستشهاد بالإمام مالك والإمام الشافعي على أنهما يمدحان الصوفية وهؤلاء الأئمة أعقل وأكبر من هذا .

أكل البهائم ثم يقوموا للرقص ، بل هذا الرقص الذي يسمونه (ذكراً) ومايرافقه من منكرات مستقبح ديناً وعقلاً ، وهو وصمة عار أن يكون في المسلمين من يفعل هذا ، وصدق قول الشاعر فيهم :

ألا قل لهم قول عبد نصوح	وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس في ديننا	بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل الحما	ر ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا : سكرنا بحب الإله	وماأسكر القوم إلا القصع
ويسكره الناي ثم الغنا	و (يسن) لو تليت ماانصدع(١)

* * * * * * * *
* * * * * *
* * * *

١ ـــ ابن القيم : إغاثة اللهفان ١ / ٢٣١ .

المبحث الخامس
المتصوفة والجهاد

تربى المسلمون الأوائل تربية جهادية ، فهم مستعدون دائماً لمصاولة الباطل والدفاع عن الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينفذون في ذلك سنن الله سبحانه وتعالى ، فالشر لابد من دفعه بالخير وإلا فسدت الأرض ، وكان علماء السلف يرابطون في الثغور للحصول على فضيلة الجهاد ، مثل الإمام أحمد بن حنبل والإمام عبد الله بن المبارك ، وقصة ماكتبه ابن المبارك للفضيل بن عياض يعاتبه فيها على تفرغه للعبادة في مكة وعدم مشاركته في حماية الحدود الإسلامية هي قصة مشهورة ، فما هو موقف الصوفية من هذا الموضوع المهم ؟ حتى يتبين لناهذا لابد من الوقوف على بعض أقوالهم وأفعالهم :

١ ــ ألف أبو حامد الغزالي كتابه (إحياء علوم الدين) في فترة تغلب الصليبيين على بلاد الشام ، وتذكر المؤلف كل شيء من أعمال القلوب ولم يتذكر أن يكتب فصلاً عن الجهاد .

٢ ــ يستشهدون دائماً بحديث ليس له أصل ويظنون أنه من كلام رسول الله ﷺ على عادتهم في ذكر الأحاديث الضعيفة وهو : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ويعنون بالجهاد الأصغر القتال في سبيل الله والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، وهذا الكلام ليس من هدي النبوة ولم يصح عن رسول الله ﷺ شيء من هذا ، كما أن فيه مغالطة واضحة وأي جهاد أعظم من تقديم المسلم

نفسه في سبيل الله ، وقولهم هذا ماهو إلا محاولة للهروب من تبعة القتال في سبيل الله بل هو صرف للمسلمين عن هذا العمل العظيم .

٣ ــ استرسل كثير منهم مع القدر الكوني وفهموا هذه المسألة فهماً خاطئاً فظنوا أن الإستسلام لما يقدره الله من عدو أو مرض أو فقر هو من باب الرضى بالقضاء ، ولذلك استكانوا للحكام الظلمة وقالوا : هذه إرادة الله وكيف نخالف هذه الإرادة ، فهم دائماً مع الحاكم سواء كان مؤمناً أم كافراً ، صديقاً أم زنديقاً (١) و لم يعلموا أن قدر الله الكوني يدفع بالقدر الشرعي ، فالمرض يدفع بالدواء ، والعدو يدفع بالجهاد ...

٤ ــ وفي العصر الحديث وعندما اقتسمت بريطانيا وفرنسا أكثر بلاد المسلمين كانت بعض فرق الصوفية غارقة في أذكارها وكأن شيئاً لم يكن ، بل يقام للمعتمد البريطاني لدى سورية الجنرال (سبيرس) حفلة (ذكر) على طريقة المولوية يدعوه إليها الشيخ هاشم العيطة شيخ الطريقتين السعدية والبدرية حيث أنشدت الأناشيد وفتلت المولوية ، ثم خطب صاحب الدار باسمه واسم إخوانه مثنياً على رئيس الجمهورية والملك جورج السادس والمستر تشرشل والجنرال سبيرس ، فأجاب الجنرال شاكراً (٢) .

وفي الجزائر كانت فرنسا تشجع الطرق الصوفية وتسمح لهم بإقامة أذكارهم والخروج في أعيادهم بالطبول والرايات ولذلك : « تساند الطرقيين والمعمرين على المصلحين » (٣) « وكانوا يحضرون

---

١ ــ الفتاوى : ٢ / ١٠١ .
٢ ــ خليل مردم بك : يوميات الخليل / ٦٢ .
٣ ــ مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، انظر المقالة التي كتبها محمد الميلي في مجلة (الوطن العربي) بتاريخ ٩ / ١١ / ١٩٨٤ عن العيون الأجنبية وحركة الإصلاح الجزائرية .

اجتماعات جمعية العلماء لاخدمة لغاياتها ولكن عيوناً لفرنسا والإدارة المحلية ولكن الجمعية أخرجتهم منها » (١) ، ولذلك كان أول عمل يقوم به باعث النهضة الإسلامية في الجزائر في هذا العصر الشيخ عبد الحميد بن باديس هو محاربة الطرق الصوفية وذلك أثناء تفسيره للقرآن الكريم في الجامع الكبير في مدينة قسنطينة . وإذا كان الأمير عبد القادر الجزائري قد حارب فرنسا فإنه وبتأثير تربيته الصوفية لم يكمل هذا القتال ، فقد عارض في استمرار الثورة ضد المحتل الفرنسي على يد ولده لأن الشيخ عاهد فرنسا ألا يرفع في وجهها سيفاً مادام حياً (٢) . وعندما نفي الأمير إلى دمشق واستقر بها كان على رأس العاملين على إعادة نشر تراث ابن عربي المملوء بفكرة (وحدة الوجود) الخبيثة الفاجرة .

وفي الهند وبعد ثورة ١٨٥٧ م المشهورة التي قام بها المسلمون ضد الإنجليز ، بعد هذه الثورة قتل من علماء المسلمين العدد الكثير ومنهم المحدث حسن الدهلوي . في هذه الفترة كتب أحمد رضا مؤسس الطريقة الصوفية (البريلوية) رسالة مستقلة باسم (إعلام الأعلام بأن هندوستان دارالإسلام) ووصفه لبلاد الهند بأنها دار الإسلام هو خدمة لبريطانيا حتى لايقام فيها جهاد ضد الكفرة ثم قال بصراحة :« إنه لاجهاد علينا مسلمي الهند بنصوص القرآن العظيم ، ومن يقول بوجوبه فهو مخالف للمسلمين ويريد إضرارهم » (٣) .

ولذلك يقول ابن تيمية عنهم : « وأما الجهاد فالغالب عليهم

---

١ — المصدر السابق ١ / ٢٦٨ .
٢ — شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ٢ / ١٧٢ .
٣ — إحسان إلهي ظهير : البريلوية / ٤٣ .

أنهم أبعد من غيرهم ، حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله مالايوجد فيهم . حتى أن كثيراً منهم يعدون ذلك (أي الجهاد) نقصاً في طريق الله وعيباً» (١) . وربما يظنون أن الذكر والتفكر والفناء والبقاء هو الأصل والأهم .

بعد هذا الإستعراض لبعض أقوالهم وأفعالهم نستطيع أن نقرر أن التربية الصوفية بطبيعتها بعيدة عن فكرة الجهاد والقتال لأنها تعتبر الرياضات الروحية هي الأصل والأساس ، وهذه الرياضات لاتنتهي إلا إذا وصل أحدهم لمرحلة الفناء ، وإذا فني فكيف يجاهد ؟!!

ونحن نتكلم عن الصفة الغالبة عليهم ، وإلا فقد يوجد وخاصة من المعتدلين من له مشاركة في دفع الظالمين ، ولكن الأكثرية هم مع المطاع المتغلب ولهذا قيل : « إن كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي » (٢) .

---

١ — ابن تيمية
٢ — إقبال : الأسرار والرموز / ١٢ ترجمة عبد الوهاب عزام .

الصوفية اليوم

هل تغيرت الصوفية عما ذكرناه في الصفحات السابقة ، هل تركوا وحدة الوجود أو الغلو في المشايخ والسير وراء الأقطاب والأوتاد ، هل تركوا البدع التي وقعوا فيها والتي تخالف سنة رسول الله ﷺ ، أم أنهم متمسكون بكل هذا التراث ؟ الواقع أنهم موجودون بكل الفئات التي ذكرناها وبكل العقائد الفاسدة والخرافات واللامعقول ، وبكل طرقهم الكثيرة المنتشرة على رقعة العالم الإسلامي كالشاذلية والنقشبندية والرفاعية والقادرية والتجانية والبريلوية ... الخ من الطرق ، والتفرق لاينتهي عند حد معين .

وصوفية اليوم منهم العوام الجهلة الذين لايعرفون إلا الأذكار الجماعية والتماس البركات من الشيخ ، ومنهم الغلاة الذين يعتقدون بما يقوله ابن عربي وابن الفارض ، ومنهم علماء في الفقه ولكنهم ينتسبون إلى طريقة من الطرق المشهورة وكأن الإنتساب لها ضربة لازب ، أو كأنه يحس بنقص إذا لم يكن منتسباً إلى القوم ، فلابد أن يكون الشافعي مذهباً والشاذلية طريقاً ... ونجد هذا الفقيه لايمارس طقوسهم ولايعتقد الكثير من عقائدهم ولكنه التقليد والخوف من الخروج عن المألوف .

كان أحد مشايخ الصوفية من بلاد الشام يجلس في المسجد الحرام في مكة المكرمة ووجهه إلى الكعبة ولكن تلامذته يجلسون صامتين ووجوههم إلى الشيخ لأن النظر إلى وجه الشيخ عبادة ، ولم

يكن يلقي عليهم درسا . وعندما يقوم من مجلسه يسرعون لخدمته فأحدهم يمسك له الحذاء وآخر يناوله العصا ، ويمشون وراءه كأن على رؤوسهم الطير . أليست هذه هي التربية الذليلة التي تكلمنا عنها ؟

صوفي آخر من بلاد الشام يوزع على تلامذته (ورد الشاذلية) وأوله بالحرف الواحد : « اللهم انشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة » أليست هذه هي وحدة الوجود بعينها ؟

وعندما أراد الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر سابقاً أن يكتب سيرة سيده أبي العباس المرسي ذهب إلى قبر (البدوي) يستأذنه في الكتابة فأذن له !! [1] ويدعى الشيخ إلى الهند للمشاركة في احتفال إقامة قبة على قبر شيخ من شيوخ الصوفية هناك فيلبي الدعوة ، ألا يعلم شيخ الأزهر أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك ؟ ألا يعلم الصوفية أن الرسول ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد ؟ فلماذا لايمتثلون أمره إذا كانوا يحبونه كما يدعون ؟ إنما هو الهوى عين النفس بالبدعة تخرم العقل فيهدم الدين هدماً .

ولايزال أصحاب الطريقة الرفاعية عندما يجتمعون (للحضرة) يضرب أحدهم نفسه بآلة حادة تسمى (الشيش) وإذا لم تؤثر فيه يقولون : هذه كرامة له ، وإذا كان فاسقاً قالوا : هذه كرامة لشيخ الطريقة !!

وإذا ذهبت إلى شمالي بلاد الشام أو مصر أو المغرب ترى هذه البهلوانية على الطريقة الرفاعية . ومايفعل في مصر من احتفالات مولد البدوي أو الحسين ، حيث حفلات الرقص والطبل والزمر ، وحيث

---

١ ــ راجع تقدمة الكتاب المذكور لمؤلفه .

الإختلاط بالنساء وتضييع الفرائض شيء يخجل منه أهل الإسلام ويتبرأ منه دينه وشرعه ، والأزهر بجوارهم ومامن منكر عليهم ، وتقام الصلاة في مسجد الحسين ولايدخلون للصلاة لأنهم جاءوا للإحتفال (بسيدنا الحسين) ولا للصلاة .

وللطرق في مصر شيخ مشايخ ولهم مجلة تذكر في عددها (٥٧) أن الطريقة الحامدية الشاذلية أقامت احتفالاً بذكرى سيدهم ابراهيم سلامة الراضي واعتذر شيخ المشايخ عن الحضور لأنه مشغول باحتفالات مولد (البدوي) والعدد القادم للمجلة يحتفل بعيد المولد النبوي ... وهكذا أيامهم كلها أعياد واحتفالات لاتنتهي ، ولكل طريقة احتفالاتها :

وكم في مصر من المضحكات   ولكنــه ضحك كالبكـــاء

وأما في إفريقيا فالبلاء أعظم والخطب أعم ، فالطريقة التيجانية تسيطر على غرب هذه القارة وخاصة في السينغال ، ويكفي للتدليل على قلة عقولهم وضلالهم قول مؤسس هذه الطريقة : « من حصل له النظر فينا يوم الجمعة والإثنين يدخل الجنة بغير حساب ولاعقاب » (١) ، وقوله : « وسألته ﷺ لكل من أخذ عني ورداً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ماتقدم منها وماتأخر » (٢) أليست هذه دعوة إلى الإنحلال وترك التكاليف [فالنظر إلى الشيخ يدخل الجنة بلاحساب] !!

وإذا يممت وجهك صوب المشرق فَثَمَّ البلاء كله ، فالهنود مغرمون بالمبالغات والقصص الغريبة عن شيوخ الصوفية . وقد انتشرت في هذا العصر الطريقة (البريلوية) وامتدت إلى باكستان

١ ــ علي الدخيل الله : التيجانية / ٢٣٨ ط. دار طيبة ــ الرياض .
٢ ــ المصدر السابق / ٢٢٢ .

ولها أتباع كثيرون من الحمقى والمغفلين ، ومبادئها تمثل الغلو في شخص الرسول ﷺ ومعاداة أهل السنة (١) ، قال مؤسس الطريقة أحمد رضا (٢) موضحاً منهج الصوفية في الإبتعاد عن التوحيد : « إذا تحيرتم فاستعينوا بأصحاب القبور » (٣) ويقول في غلوه في شخص الرسول ﷺ : « إن رسول الله ﷺ متصرف في كل مكان وهو مالك الأرضين ، ومالك الناس » (٤) ، وأما عن علاقته بالمسلمين في الهند فهو معاد لأهل الحديث يسب ويشتم أمثال القائد العالم إسماعيل الدهلوي الذي استشهد في معركة مع طائفة (السيخ) الكفرة .

وأخيراً هناك سؤال لابد منه وهو : لماذا هذا الإهتمام بالصوفية من دوائر الإستشراق ، بل يمكن القول بأن كثيراً من بحوث التصوف الحديثة ترجع إلى عمل المستشرقين ، الذين اهتموا بالتعليق على موضوعاته وإخراج المؤلفات الصوفية وطبعها ونشرها ، وقد ترجمت إلى الألمانية تائية ابن الفارض في مدينة فيينا سنة ١٨٥٤ ، كما ترجمها إلى الإيطالية (أكنيزوا) في روما عام ١٩١٧ وإلى الإنجليزية (نيكلسون) عام ١٩٢١ (٥) . وقد أمضى المستشرق الفرنسي (ماسينون) كل حياته متفرغاً للكتابة عن الحسين بن منصور الحلاج الذي أفتى علماء بغداد بقتله لقوله بالحلول وقد كتب (ماسينون)

١ ــ كتب عنهم الأستاذ إحسان إلهي ظهير بعنوان (البريلوية عقائد وتاريخ) وبين فساد منهجهم وضلالهم .
٢ ــ ولد في مدينة (بريلي) من مدن الهند عام ١٨٦٥ يصفونه بأنه حاد المزاج لعاناً بذيئاً سريع التكفير لمخالفيه ، توفي عام ١٩٢١ .
٣ ــ البريلوية / ٦٠ .   ٤ ــ المصدر السابق / ٦٩ .
٥ ــ بدوي : تاريخ التصوف / ٣٠ .

عن الحلاج ثلاثة مجلدات (١) . والمستشرقون لم يهتموا بالصوفية وإبراز الغلاة منهم فقط ، بل بكل الفرق كالمعتزلة والشيعة والخوارج ، فلماذا هذا الإهتمام إن لم يكن لإبراز الوجه الآخر لتاريخ المسلمين وليستمرالضالون في ضلالهم .

* * * * * * * *
* * * * * *
* * * *

١ ـــ جاء في مقدمة شرح ديوان الحلاج للدكتور كامل مصطفى الشيبي رواية يرويها قس سرياني عراقي مقيم في باريس يدعى دهان الموصلي يقول هذا القس أن المستشرق لويس ماسينون كلفه في ربيع ١٩٥٣ بإقامة قداس خاص على روح الحسين بن منصور الحلاج في البيعة التي يشرف عليها في العاصمة الفرنسية يوم ذكرى وفاته ، ويذكر الموصلي أنه دهش لطلبه وذكره بأن الحلاج مسلماً فقال ماسينون : الحلاج رجل متصوف روحاني وأن فوارق الأديان لايحسب لها حساب في حالته . انظر المقال الذي كتبه جهاد فاضل في مجلة الحوادث العدد / ١٤٢٠ .

كلمة أخيرة

إن المهمة الرئيسية التي نرجوها من وراء بحثنا هذا هي تجلية أسباب التفرق وماينشأ عنه من الإبتعاد عن الصراط المستقيم وعن منهج أهل السنة والجماعة ، ولذلك سنذكر بعض العوامل والصفات المشتركة التي ساعدت على تشكل الصوفية وإظهارها بصورتها الحالية ، وأعطتها ملامحها الأساسية التي تعرف بها وتميزها عن غيرها ، وبذلك يسهل على المسلم معرفة الخير من الشر ، ويسهل عليه تمييز الواقع الحالي لدعاتها ومنتسبيها ، وسنذكر هذه الصفات والعوامل بإيجاز مركز .

أولاً: ضعف العلم الشرعي : وهو ـــ كما يقول ابن الجوزي ـــ من أول تلبيس إبليس عليهم ، إذ قالوا : المقصود هو العمل ، ونحن نعبد الله ونذكره دائماً ، وقد تركنا الدنيا واتجهنا إلى الله . ومن هذا التصور بدأ مصباح العلم يخفت ضوءه شيئاً فشيئاً ، فأعرضوا عن العلم الشرعي الذي هو طريق العمل الصحيح كالحديث والفقه والتفسير ، فغلب عليهم الجهل وانتشرت البدعة والخرافة بينهم . فعبادات أكثر المتصوفة وخاصة العوام منهم حشوها البدع وذلك لما أشاعه مشايخهم من مفاهيم مغلوطة عن البدع حسنتها في عقولهم .

ثانياً: التأويل :

وهي مشكلة عامة الفرق ، والبلاء المشترك بينها ، فقد جنحوا إلى تأويل النصوص وحذفها عن ظاهرها المتبادر إلى معان لاتليق بها

حتى يستدلوا بها على مذاهبهم وأقوالهم الفاسدة ، وقد رأينا من قبل أمثلة من تأويلهم للآيات القرآنية في مبحث (الشريعة والحقيقة) وأنهم قد أغروا بالإتيان بمفهوم مخالف للفهم المستقيم ظناً منهم أن تلك هي مرتبة الخواص ، والتأويل بهذا المعنى من شيم الباطنية ، وخصلة من خصال أهل الكتاب الذين قال الله فيهم : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ (١) .

ثالثاً: الغلو في المشايخ :

تحدثنا عن هذه الظاهرة خلال سردنا لمعتقداتهم في الأقطاب والأوتاد وفي الأولياء والكرامات وانعكاس ذلك على التربية الذليلة التي يراض بها المريدون خضوعاً لذوي العصمة من مشايخهم ، ولاشك أن هذه الظاهرة من الصفات المميزة المقبوحة لدى الصوفية ، وهي كالتأويل صفة مشتركة بينهم وبين الشيعة ، وبينهم وبين النصارى ، فالشيعة غالوا في أئمتهم فقالوا بعصمتهم والنصارى غالوا في المسيح عليه السلام فرفعوه إلى مرتبة الألوهية ، وهو ماحذر منه رسول الله ﷺ فقال : « لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله » (٢) . وقد قال بعض العلماء : « من فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه بالنصارى » والموفق من أنجاه الله من براثن الغلو ومن التشبه بإحدى هاتين الطائفتين .

رابعاً: البعد عن منهج السلف :

كانت النتيجة الطبيعية لإبتداع الأفكار والأعمال لدى الصوفية أن بعدت مناهجهم في الإعتقادات والعبادات جميعاً عن السنة وعن

١ ــ سورة النساء / ٤٦ .
٢ ــ أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية . انظر : مختصر الشمائل للشيخ الألباني / ١٧٤ ، وقال عنه : حديث صحيح .

مناهج الصحابة والتابعين ، وانحط تقديرهم للسلف ــ وإن أظهروا غير ذلك ــ لأنهم ربما نظروا إليهم على أنهم فهموا الإسلام فهماً سطحياً وأن المشايخ والأولياء قد تقربوا إلى الله بما لم يتقرب إليه أحد من الرعيل الأول ، وأنهم وصلوا إلى مراتب لم يصلها أحد من السابقين الأولين ، وكان من نتيجة ذلك عدم العودة إلى منهج الصحابة والتابعين عند الإختلاف ، وحرموا الإستفادة من خير جيل .

خامساً: الصلة بين التصوف والتشيع :

إن صلة الصوفية بالتشيع شيء مؤكد ، فمرجعهم دائماً من الصحابة هو علي بن أبي طالب أو الحسن بن علي « الذي هو أول الأقطاب » (١) ، وقالت الصوفية بالقطب والأبدال وهذا من أثر الإسماعيلية والشيعة (٢) . وعوامل نشأة الفرقتين وطبيعة كل منهما توجب أن يقترب التشيع والتصوف ، فالشيعة انهزموا في ميدان السياسة ، والصوفية انهزموا في ميدان الحياة ، وأهل فارس هم أكثر الناس تصوفاً بين الأمم الإسلامية (٣) ، وقد أخذ الصوفية فكرة الحياة المستمرة لبعض الأشخاص من الشيعة الذين يقولون بمهدية فلان أو فلان وأنه حي إلى الآن . قال ابن حزم : « وسلك في هذا السبيل بعض نوكى الصوفية فزعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيّان إلى اليوم » (٤) .

وقد اعتمد السلمي في تفسيره على مايروى عن جعفر الصادق من تأويلات للقرآن مخالفة للمنهاج الصحيح في التفسير ، فإذا قالت الشيعة في تفسير قوله تعالى ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ هو علي

١ ــ لطائف المنن / ٦٧ .
٢ ــ صديق حسن خان : أبجد العلوم ٢ / ١٦٠ .
٣ ــ زكي مبارك ٢ / ٢٨ .
٤ ــ د. مصطفى الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع / ١٣٦ .

بن أبي طالب يعرف أنصاره بأسمائهم ، قال السلمي : أصحاب المعرفة أصحاب الأعراف ، وقال ابن عربي : « رجال هم العرفاء أهل الله وخاصته » [1] .

ويذكر السراج أنه « لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بين جميع أصحاب رسول الله ﷺ خصوصية بمعان جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والعلم ، تعلّق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية » [2] ، وعلي رضي الله عنه من علماء الصحابة وأفضلهم بعد سابقيه في الخلافة فلماذا هذه الخصوصية ؟

كما أخذ الصوفية مسألة عصمة الولي من الشيعة الذين يقولون بعصمة الأئمة ولكنهم أخفوها فترة من الزمن فسموها (الحفظ) ثم صرح بها القشيري فقال : « واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصي والمخالفات ، ويجوز أن يكون من جملة كرامات ولي الله أن يعلم أنه ولي » [3] . ومن الموافقات الغريبة أن كل زعماء الطرق الصوفية يرجع نسبهم إلى علي بن أبي طالب ويتوارثون زعامة الطريقة كالإمامة عند الشيعة ، وإذا كانت المشيخة هي محصول المجاهدة والسلوك فهل ولد الشيخ يجب أن يكون شيخاً ؟

إن الشيخ عبد القادر الجيلاني يرجع نسبه إلى آل البيت وكذلك الشيخ أحمد الرفاعي والبدوي وأبو الحسن الشاذلي والبكتاشي والسنوسي والمهدي وكل زعماء الطرق حتى في البلاد الأعجمية مثل محمد نور بخش وخواجة اسحق وباليم سلطان ... [4] .

١ ـــ المصدر السابق / ١٩١ .
٢ ـــ نفس المصدر / ٣٤٣ .
٣ ـــ المصدر السابق / ٣٨٦ .
٤ ـــ نفس المصدر / ٤٤٦ .

وأخيراً فإننا لم نكتب عن الصوفية إلا لنوضح منهج أهل السنة ونميزه عن غيره ـــ وماكتبنا عن رغبة في التجريح والنقد ـــ لأنه لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولأنه دين الله الذي أنزله على رسوله ﷺ وفهمه السلف وهو لايحتمل هذه الطرق التي تفرق به عن سبيله ، ولايمكن أن تكون الصوفية ـــ وبأقل درجاتها وأقصى اعتدالها ـــ لايمكن أن تكون هي منهج الإسلام ، لهذه الأسباب كتبنا عنها وأما الذين يقولون : إن الصوفية ماهي إلا سلوك وتهذيب للنفس ورياضة روحية ، هؤلاء يقال لهم : إذا لم تكن توجيهات القرآن الكريم وتوجيهات السنة النبوية فيهما تهذيب للنفس والسمو بها إلى درجات يحبها الله ورسوله فلا خير فيما خالف هذه التوجيهات سواء في الصوفية أو غيرها ، وإذا كان قدماء الصوفية قد تكلموا بكلمات مقبولة عن خبايا النفس الإنسانية وتعرجاتها ، ومعالجة أمراض القلوب ، فهذا شيء طيب وهو من أمر الله ورسوله ولانسميه صوفية لأنها أصبحت علماً على كل ماذكرناه من البدع ، ولابد لمن يأخذ بها أن يصيبه شيء منها ، فالغزالي الذي تكلم فأجاد عن أمراض القلوب قد وقع في حبائلهم الوجودية عندما قال : « ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة فرأوا بالمشاهدة أن ليس في الوجود إلا الله » وهذا هو القول بوحدة الوجود [1] .

شيء آخر لابد أن يكون واضحاً وهو أنه عند توضيحنا لمنهج الصوفية فهذا لايعني أن كل فرد من أفرادهم قد حكمنا عليه بفساد المعتقد وسوء المنقلب ، فكثيراً مايلتبس الحق بالباطل ويجتمع في الرجل الواحد الخير والشر والسنة والبدعة ومن العدل أن نذكر هذا وهذا لأن بعض الناس يظنون أن الصوفية هي الطريق الصحيح لما

١ ـــ مصطفى صبري : موقف العقل ٣ / ٩٤ .

نشأوا عليه من صغرهم أو ماشاهدوه من آبائهم ومشايخهم ، ولكن لابد من تبصيرهم بدينهم الحق وإبعادهم عن البدع التي يحسبونها صغيرة وهي عند الله كبيرة .

إن ابن تيمية ـــ الذي يعتبرونه العدو الأكبر لهم ـــ عند مفاضلته بين الصوفية والمتكلمين يفضل الجانب العبادي العملي عند المتصوفة بالمقارنة مع الجدل النظري عند المتكلمين ، والظاهر أنه لاحظ ماعليه أوائل الصوفية من استقامة على المنهج الصحيح في موضوع الأسماء والصفات مع كثرة عبادتهم ، ولكنه لم يلاحظ أنهم هم أنفسهم يخلطون في أمور التوحيد والعلم والعمل ، فالكلاباذي الذي يوصف بأنه معتدل يعرف التوحيد « أن لايشهدك الحق إياك » (١) وهو تعريف يحتمل الحق والباطل ، ونجد القشيري يتكلم عن عصمة الأولياء ، وأخطاء السلمي في التفسير عجيبة ، وقصص الغزالي في الإحياء أعجب وحتى القدامى منهم كالجنيد والشبلي والمحاسبي لهم أخطاء واضحة ، وهؤلاء يوصفون بالإعتدال .

وابن تيمية كثيراً مايقرن بينهم وبين المتكلمين فيقول : هؤلاء انحرفوا في كذا ، وهؤلاء انحرفوا في كذا ، والمقصود طبعاً غلاة المتكلمين كالرازي والآمدي ، وإلا فهل يقارن بين أبي بكر الباقلاني وأمثاله من متكلمي الأشاعرة وبين خزعبلات الصوفية ، وأين علم أبي بكر ودفاعه عن الإسلام وفقهه من شطحات وغموض الصوفية ؟ ولذلك كان عالم آخر كابن عقيل صريحاً أكثر في رأيه عندما يقول : « والمتكلمون عندي خير من الصوفية لأن المتكلمين قد يزيلون الشك والصوفية يوهمون التشبيه ، ومن قال حدثني قلبي عن ربي

---

١ ـــ التعرف / ١٣٥ .

فقد صرح بأنه غني عن الرسول ﷺ (١) .

والقشيري يعتبر الصوفية أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل ، وهم غياث الخلق !! ولاأدري ماذا ترك للصحابة والتابعين والعلماء العاملين . وصدق الله تعالى : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (٢) ولو أنصفوا وقاسوا أنفسهم بمقياس الشريعة المعصومة لعلموا أنهم مبتدعون ، ولكنه التعصب والإعجاب بالنفس . والقضية ليست في قول فلان من الناس : هذا هو طريقي أو ماأرضاه لنفسي ولكن القضية أنه ليس هناك إلا طريق واحد هو الحق ، طريق أهل السنة والجماعة ، وليس بعده إلا الضلال .

ونحن ندعو دائماً مع الرسول ﷺ :

« اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (٣) .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

١ ـــ تلبيس إبليس / ٣٧٥ .
٢ ـــ سورة المؤمنون / ٥٣ .
٣ ـــ جامع الأصول ٤ / ١٨٨ ، قال : أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي .

ملاحق البحث

أ ـ
رأي العلماء في كتب الصوفية

١ ـ كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي :

قال ابن تيمية : « الإحياء فيه فوائد كثيرة ، لكن فيه مواد مذمومة فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا : أمرضه الشفاء ، يعنون (كتاب الشفاء) لإبن سينا في الفلسفة ، وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة ، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم ، وفيه مع ذلك من كلام المشايخة الصوفية المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ، وأما مافيه من الكلام في (المهلكات) مثل الكلام على الكِبْر والعجب والحسد فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في (الرعاية) ، ومنه ماهو مقبول وماهو مردود » (١) .

وقال ابن الجوزي : « وإني لأتعجب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة ، كيف يحل القيام على الرأس طول الليل ، وكيف يحل إضاعة المال ، وكيف يحل السؤال لمن يقدر

١ ـ الفتاوى : ١٠ / ٥٥١ .

على الكسب فما أرخص ماباع أبو حامد الفقه بالتصوف وسبحان من أخرجه من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء » (١) .

وقال أبو بكر الطرطوشي : « شحن أبو حامد كتاب الإحياء بالكذب على رسول الله ﷺ ، وماعلى بسيط الأرض أكثر كذباً منه شبكة بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل إخوان الصفا » (٢) .

وقال الذهبي : « فيه من الأحاديث الباطلة جملة ، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طريق الحكماء ومخرف الصوفية » (٣) .

٢ ـ كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي :

قال الشاطبي : « لأبي طالب آراء خالف فيها العلماء ، حتى أنه ربما خالف الإجماع في بعض المواضع ، لكن له كلام حسن في الوعظ والتذكير والتحريض على طلب الآخرة ، فلذلك إذا احتاج الطلبة إلى كتاب طالعوه متحرزين ، وأما العوام فلايحل لهم مطالعته » (٤) .

قال ابن كثير : « كان رجلاً صالحاً له كتاب (قوت القلوب) ذكر فيه أحاديث لاأصل لها ، بدّعه الناس وهجروه » (٥) .

١ ـ تلبيس إبليس / ٣٥٣ .

٢ ـ عبد اللطيف آل الشيخ : الرسائل ٣ / ١٣٧ .

٣ ـ المصدر السابق ٣ / ١٤٠ .

٤ ـ الإفادات والإنشادات / ٤٤ .

٥ ـ البداية والنهاية ١١ / ٣١٩ .

٣ ــ تفسير أبو عبد الرحمن السلمي :

قال ابن تيمية : « يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة والكلام المنقول ماينتفع به في الدين ، ويوجد فيه من الآثار السقيمة والكلام المردود مايضر من لاخبرة له ، وبعض الناس توقف في روايته » (١) .

قال الذهبي : « له كتاب يقال له (حقائق التفسير) وليته لم يصنفه ، فإنه تحريف وقرمطة ،ودونك الكتاب فسترى العجب » (٢) . قال الواحدي : « فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر » (٣) .

ب ــ
الخلوات عند الطريقة الرفاعية (١)

« يتقدم المريد إلى رتبة الجاويش أو المقدم بعد اجتياز خلواتها الأربعة :

الأولى : ثلاثة أيام والإبتداء فيها يكون يوم الأحد

الثانية : ثلاثة أيام والإبتداء فيها يكون يوم الإثنين

الثالثة : أربعة أيام والإبتداء فيها يكون يوم الثلاثاء

١ ــ الفتاوى ١١ / ٥٧٨ .

٢ ــ محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ٢ / ٣٨٦ .

٣ ــ المصدر السابق ٢ / ٣٨٦ .

١ ــ لفظة (الطريقة) عند المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى أحد مشايخ الصوفية المشهورين ولهم أذكار وأوراد خاصة بهم ، ويخضعون لنظام معين في السلوك .

الرابعة : خمسة أيام والإبتداء فيها يكون يوم الأربعاء ويفصل بين كل منها عشرة أيام .

وشرط الأكل فيها ألا يأكل المتريض إلا في الصباح والمغرب ، ولايزيد فيها على مايسد الرمق ، وبشرط ألا يدخل شيئاً ذا روح »(١) ، وأن يكون محجوباً عن الناس تماماً في مكان مخصوص طاهر لايدخله أحد ، ويشتغل بالذكر وهو (ياحميد) بعدد أقله ثلاثة آلاف مرة عقب كل صلاة ، وفي الرياضة الثانية يكون ذكره (يارحيم) أقله أربعة آلاف مرة ، وفي الرياضة الثالثة (ياوهاب) وأقله خمسة آلاف مرة وإلى جانب هذه الخلوات المخصوصة ، بمختلف الدرجات ، على كل الإخوان في الطريق الرفاعي ، وكل من أخذ العهد أن يقوم بخلوة سبعة أيام ابتداء من اليوم التالي من عاشوراء ، وشروطها صياح السبعة أيام المذكورة ، ولاينام في تلك الأيام السبعة مع عياله بفراش قطعاً ولايأكل من ذي روح . وقد قال الرفاعي : إن خلوة السبعة سبب الفيض للسالك والمريد الصادق » (٢) .

١ ــ لاحظ أثر الهندوكية والنصرانية .

٢ ــ عامر النجار : الطرق الصوفية ١٠٠ / ١٠٤ ، وانظر : أبي المعالي الآلوسي في كتابه : غاية الأماني ١ / ٢٣٠ .

ويعلق الدكتور الشيبي : « فهذه الأيام السبعة تعني إظهار الحزن الشديد على الحسين كما يفعل الشيعة على صورة فيها مبالغة ولكن تقادم العهد أنس أصحاب الطريقة وغيرهم دلالات مراسمها فلم يلتفتوا إلى الممرات السرية التي تصلهم بالتشيع . » الطرق الصوفية / ١٠٤ .

قال ابن خلدون : « قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ أحمد وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التار العراق مثل دخول النيران واللعب بالحيات ، وهذا لايعرف الشيخ ولاصلحاء أصحابه » . انظر : غاية الأماني ١ / ٣٧١ .

ج ــ
ورد (جوهرة الكمال) في الطريقة التيجانية

« اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية ، والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي ، صاحب الحق الرباني ، البرق الأسطع بمزون الأرياح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني ، اللهم صل على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق ، عين المعارف الأقوام ، صراطك التام الأسقم ، اللهم صل على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم . صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه » (١) .

د ــ
كلمات لأبي سليمان الداراني (٢)

« مفتاح الآخرة الجوع ، ومفتاح الدنيا الشبع ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى »

« ليس العبادة عندما أن تصف قدميك وغيرك يفت لك ولكن أبدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد ، ولاخير في قلب يتوقع قرع الباب ، يتوقع إنساناً يجيء يعطيه شيئاً »

---

١ ــ علي الدخيل الله : التيجانية / ٢٦٢ ، وهذا عدا مافيه من البدع أو الكفر فيه تكلف شديد تمجه الفطرة السليمة ، وأكثر أوراد الطرق الأخرى فيها هذا التكلف .

٢ ــ هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي ينسب إلى بلدة داريا الواقعة في غوطة دمشق ، وهو من أوائل الصوفية المعتدلين ومن أشهر تلامذته أحمد بن أبي الحواري ، توفي سنة ٢٠٥ هـ ، انظر : طبقات الشعراني ١ / ٧٩ .

« مارأيت صوفياً فيه خير إلا واحداً عبد الله بن مرزوق وأنا أرق لهم »

« من كان يومه مثل أمه فهو في نقصان »

« لولا الليل ماأحببت البقاء في الدنيا ، وماأحب البقاء في الدنيا لتشقيق الأنهار ولالغرس الأشجار » (١) .

هـ ــ
ترجمة الحلاج

قال ابن كثير : « ونحن نعوذ بالله أن نقول عليه مالم يكن قاله أو نتحمل عليه في أقواله وأفعاله فنقول : هو الحسين بن منصور الحلاج ، كان جده مجوسياً من أهل فارس ، نشأ بواسط ودخل بغداد وتردد إلى مكة ، وكان يصابر نفسه ولايجلس إلا تحت السماء في وسط المسجد الحرام ، وقد صحب جماعة من سادات الصوفية كالجنيد وعمرو بن عثمان المكي وأبي الحسين النوري ، قال الخطيب البغدادي والصوفية مختلفون فيه فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم وقبله بعضهم كأبي العباس البغدادي ومحمد بن خفيف وابراهيم بن محمد وصححوا حاله .

حكي عن غير واحد من العلماء إجماعهم على قتله وأنه قتل كافراً . وكان مشعوذاً متلوناً فهو مع كل قوم على مذهبهم إن كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو فساقاً وغيرهم ، ومازال يضل الناس ويسموه عليهم حتى ادعى الربوبية فسجن في بغداد

---

١ ــ انظر : حلية الأولياء ٩ / ٢٥٩ ــ ٢٦٣ وكذلك صفة الصفوة ٤ / ٢٢٣ .

وأجمع الفقهاء على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق ، قتل ببغداد بعد فتوى الفقهاء » (١) .

قال الاصطخري : الحلاج كان رجلاً ينتحل النسك فمازال يرتقي به طبقاً عن طبق حتى انتهى به الحال إلى زعم أنه ممن هذب في الطاعة نفسه وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، ارتقى بها إلى مقام المقربين ثم لايزال يتنزل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية في طبعه وعندئذ يحل فيه روح الله الذي كان من عيسى بن مريم فلايريد شيئاً إلا كان » (٢) .

١ ـــ البداية والنهاية ١١ / ١٣٨ .
٢ ـــ آدم متز : الحضارة الإسلامية ٢ / ٦٣ .

ثبت المراجع

ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم
الفتاوى : ط. الرياض
اقتضاء الصراط المستقيم
درء تعارض العقل والنقل : تحقيق رشاد سالم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
الإستقامة : تحقيق رشاد سالم

ابن القيم : محمد بن أبي بكر
مدارج السالكين
إغاثة اللهفان

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي
صفة الصفوة
تلبيس إبليس

ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن

أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين

أبو نصر السراج : اللمع

ابن خلدون : المقدمة

ابن كثير : اسماعيل بن كثير
البداية والنهاية

الآلوسي : أبو المعالي محمود شكري
غاية الأماني في الرد على النبهاني

الآلوسي : نعمان خير الدين
جلاء العينين في محاكمة الأحمدين

البقاعي : برهان الدين
تنبيه الغبي لتكفير ابن عربي : تحقيق الوكيل
البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد
تحقيق ماللهند من مقولة : ط. حيدر آباد
الجيلاني : عبد القادر
الفتح الرباني
الجرجاني : التعريفات
الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان
سير أعلام النبلاء : ط. مؤسسة الرسالة
ابن سعد : الطبقات
الشاطبي : أبو إسحاق ابراهيم بن موسى
الإعتصام من البدع
الموافقات
الإفادات والإنشادات
الشيباني : الإمام محمد بن الحسن
الكسب : تحقيق سهيل زكار
الشوكاني : محمد بن علي
قطر الولي على حديث الولي : تحقيق ابراهيم هلال
الشعراني : عبد الوهاب
الطبقات الكبرى
الرازي : اعتقادات فرق المسلمين
الراغب الأصفهاني : الحسين بن محمد
الذريعة إلى مكارم الشريعة

الكلاباذي : أبو بكر محمد
التعرف لمذهب أهل التصوف
أحمد أمين : ظهر الإسلام
إحسان إلهي ظهير : الشيعة وآل البيت
خليل مردم بك : يوميات الخليل
زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق
سميع عاطف الزين : الصوفية
شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي
صديق بن حسن القنوجي : أبجد العلوم
عامر النجار : الطرق الصوفية
عبد الله سلوم السامرائي : الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية
عبد القادر عيسى : حقائق عن التصوف
عبد الرحمن الإفريقي : الأنوار الرحمانية لهداية الفرق التيجانية
عبد الرحمن بدوي : الإنسان الكامل في الإسلام
شخصيات قلقة في الإسلام
تاريخ التصوف الإسلامي
من تاريخ الإلحاد
شطحات صوفية
د.مصطفى الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ط. دار المعارف
عبد الرحمن الوكيل : هذه هي الصوفية ط. دار الكتب العلمية
علي بن محمد الدخيل الله : التيجانية ـــ نشرة دار طيبة
مالك بن نبي : مشكلة الأفكار
مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين
رشيد رضا : تاريخ الإمام

ولي الله الدهلوي : حجة الله البالغة

آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

الكسيس كاريل : تأملات في سلوك الإنسان ـــ نشرة جامعة الدول العربية

المحتوى